ترجمة : د. مازن مطبقاني

صراع الغرب مع الإسلام

استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب

آصف حسين





صراع الغرب مع الإسلام

أصف حسين

ترجمة : مازن مطبقاني

لا تقصد هذه الدراسة إلى توجيه الاتهام، أو إلقاء المسئولية، ولكن هدفها هو طرح مجموعة من الحقائق تُبرِز فهم الغرب للإسلام ....

إن هذه الدراسة تحاول أن توفر الحقائق التي تعكس التعصب، والكره، والعداء المستبطن في التفكير المعادي للإسلام في الغرب، ومن المؤمل أن تضع القواعد للباحثين في فهم الإسلام، وتوعيتهم بالأخطار المشحونة في التقليد المعادي للإسلام، ففي عالم مليء بالمعتقدات المختلفة التي تتعايش معًا من الضروري الفهم المتبادل لآراء الآخرين كما هي ..

المؤلف : آصف حسين



المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف 96614539883
فاكس 96614532157
ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322
البريد الإلكتروني daralwae@gmail.com




صراع الغرب مع الإسلام
استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

صراع الغرب مع الإسلام

استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب

آصف حسين

ترجمة

د. مازن مطبقاني

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

ح دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسين ، اصف

صراع الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للاسلام في الغرب . /
اصف حسين ؛ مازن صلاح مطبقاني . - الرياض ، ١٤٣٤هـ

١٥٢ ص ؛ ١٤ X ٢١ سم

ردمك : ٢-٤-٩٠٣٣٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الاسلام والغرب ٢- الاسلام دفع مطاعن
أ . مطبقاني ، مازن صلاح (معد) ب.العنوان
ديوي ٢١٤,٩٤ ١٤٣٤/١٩٨٥

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ



ص . ب ٢٤١٤٧٠ الرمز البريدي ١١٣٢٢ الرياض المملكة العربية السعودية

هاتف ٠٠٩٦٦١١٤٥٣٩٨٨٣ - فاكس ٠٠٩٦٦١١٤٥٣٢١٥٧

markazfekr@hotmail.com

الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com



الفهرس

تقديم الترجمة

كان أول اكتشافي لكتابات البروفيسور آصف حسين حين وجدته مشاركًا في تحرير كتاب بعنوان: (الاستشراق، الإسلام والإسلاميين)، الذي صدر عن دار أمانا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م)، وكان أول بحث في الكتاب بعنوان: (أيديولوجية — المسار الفكري —للاستشراق)، وشاء الله أن أقوم بترجمته لمجلة جامعة الإمام؛ لينشر في العدد السابع، بتاريخ: ربيع الآخر ١٤١٣هـ/١٩٩٢.

وانعقدت الصلة بيني وبين المؤلف راسلته في كلية ليستر (Leicester) المتوسطة حتى كان عام ١٤١٠هـ، وغزا العراق الكويت، فتداعت الجيوش الأجنبية؛ لإنقاذ الكويت، في هذه الأثناء الذي توقف فيه الطيران، وفي أثناء إعدادي بحث الدكتوراه وصلني كتاب: (صراع الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب) عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) يطلب مني المؤلف ترجمته إلى العربية، أو البحث عمن يترجمه. فاستقر رأيي أن أقوم بترجمته، وبالفعل ترجمت الكتاب، ولكن تعثر الحصول على ناشر من وقت ترجمته عام ١٤١٢هـ حتى عام ١٤٢٠، حتى ظن الناشر الأول -وهو الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالمدينة المنورة- أنني أقدمه لطبعة ثانية؛ نظرًا لأن المسّودة كتب عام ١٤١٢هـ.

وفي هذا الوقت الذي صدر فيه الكتاب الذي كانت الشيوعية تترنح، أو تلفظ أنفاسها -كما يقولون-؛ حيث سقطت في عقر دارها في روسيا، وبدأت تتهاوى في أوروبا الشرقية، فالتفت الغرب يبحث عن عدو، فلم يجد سوى الإسلام والمسلمين، فأعلن العداء للإسلام والمسلمين، وبدأت أقلام كتاب الصحف والإعلاميين، وانساق معهم طائفة من الأكاديميين في هذه العداوة حتى إن قسيسًا من معهد هارتفورد اللاهوتي كتب في نشرة صادرة عن مكتب العلاقات الإسلامية النصرانية يتساءل: «من الشبح الجديد؟» متعجبًا أن يتخذ الإسلام ذلك العدو؛ لتجتمع كلمة الغرب على معاداته ومحاربته، وليس ثمة مبرر لمثل هذه العداوة والحرب، ولقد تعجبت



حينها من اهتمام رجل دين نصراني بهذه العداوة للإسلام[1].

أمـا البروفيسـور آصف حسين، فقـد ظلت المراسلات بينـي وبينه؛ حيث علمت أنـه يعمل في منظمة اسمها حقـوق الإنسان الإسلامية، ربما قصد منها أن تكون في مواجهـة حقوق الإنسان الدولية، ولكـن أعتقد أنه لم يكتب لها النجاح؛ لأنه لم تقف دولة إسلامية خلف هـذه المنظمة تقويها وتدعمها. ولكن الأستاذ آصف ظل نشيطًا في المجال الأكاديمي يهتم بالحركات الإسلامية، والتطورات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكتب عن كل من مصر، وباكستان، وإيران، وهذه الكتب هي الآتية:

- سياسات النخبة في دولة إيديولوجية: دراسة حالة باكستان، ١٩٧٩.
- ميلاد بنجلاديش: الدور السياسي للبعثات التنصيرية، ١٩٨٠.
- الأساليب النظرية الغربيى للنظام السياسي للدول الإسلامية: نقد عام ١٩٨١.
- ما وراء الأصولية الإسلامية: علم اجتماع الإيمان والعمل، ١٨٩٢.
- الحركات الإسلامية في مصر والباكسان وإيران: بيليوغرافيا تفصيلية، ١٩٨٣.
- وجهات نظر سياسية حيال العالم الإسلامي، ١٩٨٤.
- الاستشراق والإسلام والمتخصصين في الإسلام (تحرير ومشاركة)، ١٩٨٤.
- إيران الإسلامية: الثورة والثورة المضادة، ١٩٨٥.
- الإرهاب السياسي والدولية في الشرق الأوسط، ١٩٨٨.
- صراغ الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب، ١٩٩٠.
- حزب الله، ٢٠٠١.
- مدن المدمجة: اكتشاف التطور الثقافي لمدينة ليستر البريطانية بالاشتراك مع آخرين، ٢٠٠٣.
- التربية الحديثة بالاشتراك مع محمد هارون، ٢٠٠٥.
- الثورة الثقافية الباكستانية: بناء إمبراطورية إسلامية جديدة، ٢٠١١.
- الحضارة الإسلامية: من التنوير حتى الأصولية ٢٠١٢.

هـذه الكتابات تـدل على اهتمامـات البروفيسور آصف الواسعـة التي تمتد من

(١) - (لماذا يخوفون الغرب بالإسلام؟) (المسلمون، ٤/جمادى الآخرة، ٢١ديسمبر ١٩٩٠).

الاهتمام بالإسلام، وحضارته، ونظامه السياسي إلى أوضاع المسلمين المعاصرة، وبخاصة في الجوانب السياسية، كما أن له اهتمام خاص بالتربية والتعليم. ويبدو أن كتاباته حول العلاقة بين الإسلام والغرب انطلقت من عدة جوانب، أولها: صلة الحركات الإسلامية التي يُطلق عليها الأصولية بالغرب، ونظرة الغرب لهذه الحركات، كما ظهر اهتمامه من خلال المناصب التي تولاها والأعمال التي شارك فيها في قضية التعايش الثقافي، ولكنه كان مؤمنًا دائمًا بأن للغرب مواقف سلبية من الإسلام والمسلمين.

أما المناصب التي تولاها، فمن أولها التدريس في كلية ليستر المتوسط حينًا من الدهر، وتأسيس وإدارة دار نشر تولت نشر بعض مؤلفاته، ومنها هذا الكتاب الذي أقدمه هنا في ترجمته العربية، كما عمل زميلًا زائرًا في جامعة ليستر مركز تاريخ الأديان والتعددية السياسية، وهو -كما يقول موقع الجامعة- خبير بالشأن الثقافي، وعمل مستشارًا لدى عدد كبير من المؤسسات العامة والخاصة في موضوعات تمتد من التوظيف إلى التسويق في المجتمعات المتعددة الثقافات، كما أنه عرف عند القوم (في بريطانيا والغرب عمومًا) بأنه خبير بأسباب الإرهاب، كما عمل في مجال الخدمة المدنية والدبلوماسية، ولكن قضى معظم عمره في المجال الأكاديمي متخصصًا في الحضارة الإسلامية، والتعايش الثقافي.

أما موقفه من عداء الغرب، فهو منطلق من تقليد معاد للإسلام، وأن الإعلام الجماهيري تحت سيطرة وكالات الإعلام الغربية ذات التأسيس المتين والمعقد، وقد وجدت العواطف المعادية للمسلمين والعنصرية منذ الحروب الصليبية، ولكنها تتخذ أشكالًا متخلفة في أوقات مختلفة، ويري آصف أن الإعلام الغربي أداة قوية، وتؤثر في الرأي العام في الديمقراطيات الغربية، وبهذه الطريقة خدم المصالح الاقتصادية السياسية للغرب، وفي البلاد التي عاش فيها طويلًا حتى تجاوز السبعين سنة (من مواليد ١٩٣٨)، يري أن المسلمين يواجهون التمييز ضدهم في التوظيف في بريطانيا، وفي الأعمال، كما أن المسلمين يتعرضون للهجوم على مساجدهم، وعلى أي مسلم يكون مرتديا الزي الإسلامي.

وقـد تناول آصف حسين عـداوة الغرب للإسلام من خلال سبعة فصول، بدأها بموقـف النصرانية من الإسـلام، وأن عدم الاعتراف بالإسـلام؛ الدين الذي جاء مصدّقـا ومهيمنـا على ما قبله مـن الأديان، نبع عدم الاعـتراف والتصديق به من رجال الدين النصارى الذين خشوا على مناصبهم ومكاسبهم الدنيوية[1]، وتأكدت هـذه العداوة من رجـال الدين النصارى حين قادوا الحمـلات الصليبية على مدى مائتي عام، وتحدث في فصل تال عن الرحالة الغربيين، والتجسس، وكيف أن كثيرًا مـن هؤلاء الرحالة قامـوا بمهمات تجسسية وسياسية لصالـح دولهم، وضد العالم العربي والإسلامي، وقاموا بأدوار نفذوا فيها المخططات الاستعمارية لبلادهم.

ثم خصـص فصلًا للحديث عـن الاستشراق والاستعمار، وأكـد نظرية إدوارد سعيد حول العلاقة بين القـوة والهيمنة، وأن الاستشراق استخدم لتنفيذ الأغراض الاستعماريـة، وتظهـر أهمية أن يترجـم مثل هذا الكتاب إلى اللغـة العربية -ليس للمؤلف مترجمًا سوى هذا الكتاب والبحث المذكور أعلاه- هو قلة الأبحاث المنشورة باللغـة العربية في مثل هذه الموضوعات التي تكشـف فيما تكشف نشاط الاستشراق وأساليبـه، وليقـدم للمسلمـين حقيقـة العـالم الأوروبـي، وشـدة مكـره بالإسلام والمسلمـين، وحرصـه الشديد علـى إذلالهم، وسلـب خيراتهم، كما صـرّح الكاتب الصحـافي البريطاني روبرت فيسك في مقالة لـه يحذر المسلمين من تصديق وعود الغرب، وأقواله؛ لأن هذا الغرب غادر يقتل، ويدمر، وينهب الخيرات.

وتحـدث المؤلف عن التنصير، وعلاقة المنصريـن في الدوائر الاستعمارية، وقد لفـت انتباهـي أن المندوب الأمريكـي في الخليج يكاد يأمر حـكام المنطقة بالسماح للمنصريـن بالتجـول بحرية، كمـا أن المنصرين وقفـوا إلى جانـب حكوماتهم في الحـرب العالمية الأولى والثانية، وسعـوا لفرض ولاء حكام الخليج لدول الحلف ضد

(1) في لقـاء مع أحد الأمريكان الذين قبلوا الإسلام، وكان له صلة قريبة برجال الدين النصارى سألـه الشيخ جبران القرني قائـلًا: نحن نقرأ قوله تعالى: (يعرفونه كمـا يعرفون أبناءهم)، فكيـف هذا؟ فقال روبرت كريـن -الذي كان مستشـارًا للرئيس الأمريكـي الأسبق ريتشارد نيكسـون-: إن هذا صحيح، وقد تناقش روبرت مع عدد من رجال الدين، فاعترفوا بمعرفتهم بأن الإسلام حق.

دول المحور، وقد كان كثير من المنصرين على علاقات وثيقة بعدد من الحكام، كما أنه ثبت ارتباط كثير من المنصرين بالحكومات الغربية؛ حيث عملوا مستشارين لهذه الحكومات.

وتناول العداء في الغرب للإسلام في مجال يجهله كثير من الباحثين، وهو مجال العلوم الاجتماعية، وبخاصة إنشاء علم اسمه علم الإنسان (الإنثروبولوجي) الذي استخدم استخدامًا كثيفًا في الهيمنة على الشعوب الإسلامية.

وفي تقويم عام للكتاب يقول المحكّم أو الفاحص للترجمة: «والكتاب موثق بالمصادر التي استقى منها المعلومات، وكتب حسب المنهج العلمي في مراعاة الفصول، وكتابة الفقرات، والتزام الفواصل».

والكتاب يتمتع بالأصالة في التناول، والعمق في المادة والتحليل، كما يتوافر فيه مادة غزيرة، ومعلومات وفيرة، وتحليلات علميّة رائعة، بالإضافة إلى ذلك كله ففيه ربط محكم بين الأحداث وغاياتها، وبين التصرفات الصادرة من الجهات المعادية للإسلام في الغرب والسياسات التي تحمي تلك التصرفات، وتضفي عليها غطاء التواصل والتعايش مع العالم الإسلامي، والحال أن الغايات المبيتة هي محاربة الإسلام، وإخراجه من عقول الناس وأفكارهم، وإني لأخال المؤلف من أولئك المفكرين القلائل الذين فهموا الجذور الفكريّة والاستيراتيجية للعلاقة المكفهرة بين العالم الإسلامي والغرب، والتي تشهد يومًا بعد يوم اشتعالاً وترديًا نتيجة المواقف العدائية المعلنة للإسلام والمسلمين في مراكز صنع القرارات في عالم الغرب.

ونظرًا لأن الكتاب قد صدر عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠)، فإن عداوة الغرب استمرت، وظهرت بشكل أكثر وضوحًا، فمن زلة لسان -أو كما أسموها- بوش حين ذكر كلمة صليبية، وهو وإن كان تعبيرًا لغويًا عن الجهد المبذول في أي أمر، فإنها كانت صليبية من مبدئها إلى نهايتها يستهدي بمجموعة من المستشارين من رجال الدين النصارى، فحارب الأب العراق عام ١٩٩٠، وجاء ابنه ليشنها حملة لا هوادة فيها



على العراق وأفغانستان عام ٢٠٠٣، وظلت الجيوش الأمريكية تستخدم كل ما لديها من قوة، ومن أسلحة فتاكة في بلاد المسلمين تقتل، وتدمر، وتسفك الدماء، وترمل النساء وتيتم الأطفال.

وأقامت أمريكا سجونًا في البلاد المحتلة كسجن أبي غريب، واعتقلت المئات من شباب المسلمين في غوانتمو الذي يقع خارج الأراضي الأمريكية حتى يتهرب الأمريكان من إعطاء المساجين الحقوق الأساسية المنصوص عليها في القوانين الأمريكية، أو حتى في المعاهدات الدولية.

وفي مسألة التهديد الإسلامي للغرب كتب الدكتور باسل حسين يقول: «إن هستيريا معاداة الإسلام المتزايدة في الغرب، هي هستيريا ناتجة من تبني رؤى مغالطة تعكس، سوء فهم أو منهجية قائمة على أسس غير علمية، وأخرى مقصودة تنم عن نظرة مريضة تجاه الإسلام، وما لم يتم تبني رؤية موضوعية تشكل بمجلمها غالبية السلوك الغربي تجاه الإسلام والمسلمين، فان الغرب سيبقى أسير الخوف المرضي لما يسمى بالتهديد القادم من الجنوب، وتحديدًا العالم الإسلامي»[1]، ويقول باحث آخر عن هذا العداء: «ارتفعت وتيرة عداء العالم الغربي للإسلام والمسلمين في السنوات القليلة الماضية، ولا يزال ذلك ملموسًا حتى الآن، رغم انطلاق مشروع ما أسموه: «حوار الأديان»، أو الثقافات. دونما نتيجة تذكر، هذا العداء والكراهية أدخلا العالم بأسره في دوامة لا أول لها ولا آخر، ومتاهات كثيرة ومختلفة كانت لها إسقاطاتها على الأمة الإسلامية كاملة...»[2].

ومظاهر العداء منذ ظهور الكتاب قد تعددت وكثرت؛ ونظرًا لكثرتها فسأكتفي

---

(١) باسل حسين: «الغرب وخرافة التهديد الإسلامي» في http://alarabnews.com/alshaab/GIF/10-01-2003/a3.htm يوم الأربعاء ٣٠ مايو ٢٠١٢ الساعة السابعة صباحًا.

(٢) إبراهيم أبو جابر: «عداء الغرب للإسلام والمسلمين (أسبابه ونتائجه)»، في ٢٠١٠/٨/٢٢١ http://ar.qawim.net/index.php?option=com_content&task=view&id=7359&Itemid=1291

بمثالين أو ثلاثة: فهذا رسام الكاريكاتير الدنماركي الذي وضع رسومًا كاريكاتورية لسيدنا رسول الله ﷺ، وقامت الدنيا ولم تقعد في العالم الإسلامي من مظاهرات، وكتابات، ومواقع للدفاع عن رسول الله ﷺ إلى وفود حلّت بالدنمرك، وغيرها من البلاد الأوروبية مطالبة الرسّام بالاعتذار أو الصحيفة التي ظهرت فيها الرسومات، وقد باءت الجهود بالفشل، وليس هذا فحسب، بل إنني قمت بتمرين أعتقد أنه غريب نوعًا ما حيث بحثت في قوقل (محرك البحث الأشهر) عن المؤيدين والمساندين لرسام الكاريكاتور الدنماركي، فوجدت أن الأمر ليس قليلًا حيث بلغ عدد الصفحات في الأمر أربعة عشر مليونا ومائة ألف، وصحيح أنها ليست كلها في تأييده، ولكن نسبة كبيرة منها ترى أن المسألة مسألة حرية فكرية، فبينما تحرم أوروبا وأمريكا من يطعن أويشكك في حقيقة المحرقة اليهودية أو الهولوكوست، فإنها تعطي الرسام الدنمركي وغيره الحق في تشويه صورة من يبغون.

أما المثال الثاني: فهي تصريحات بابا الفاتيكان حول الإسلام في محاضرته التي ألقاها في ألمانيا، ونسب للإسلام أمورًا هو بريء منها، وعلى الرغم من كل الضجة، فلم يتراجع البابا، ولم يعتذر حتى إن أحد القساوسة أعلن إنه سيحرق نسخة القرآن الكريم.

وحول عداوتهم سأكتفي بآية واحدة، وهي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨) التي يقول القرطبي في تفسيرها: «يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم، والبغضاء: البغض، وهو ضد الحب ... وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه، وتتمة الآية: (وما تخفي صدورهم أكبر) يقول القرطبي: أن معناها: «إخبار وإعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم».

ومن العداوات التي لم يفردها المؤلف بحديث مفصل، وهو ما فعله الاحتلال في بلادنا في مجال العلم والتعليم، وأقدم نموذجًا مما حدث في مصر؛ فلما تولى اللورد كرومر منصب أول حاكم عام لمصر (١٨٩٣-١٩٠٧)، وكان مسؤولًا عن حكم




مصـــر مــدة تصل إلى أربع عشـــرة سنة، وكان رأيــه كما جاء في كتابــه الذي نشره بعد مغادرته مصر (مصـر الحديثة): «إن الخلاف الشديد بين المسلمين والمستعمر الغربي في العقائد، وفي القيم، وفي التقاليد، وفي اللغة، وفي الفن، وفي الموسيقى...»، ولا بـد من التغلب على هذا الخلاف، وثمة طريقان في رأيه: أحدهما هو تربية جيل مـن المصريـين العصريين الذيـن ينشؤون تنشئـة خاصة تقربهم مـن الأوروبيين، ومـن الانجليـز على وجه الخصوصـ في طرائق السلوك والتفكـير، ومن أجل ذلك أنشــأ كرومر كلية فيكتوريا التي قصد بهـا تربية جيل من أبناء الحكام، والزعماء، والوجهــاء في محيط إنجليزي؛ ليكونوا من بعد هم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شـؤون المسلمين، وليكونوا في الوقت نفسه علـى مضي الوقت أدواته في التقريب بين المسلمـين وبين المستعمر الأوروبـي، وفي نشر الحضارة الغربيـة. «وقد حدثني أحد الذيـن درسوا في هـذه المدرسة أنهم كان محرما عليهم التحـدث باللغة العربية في المدرسـة، ويعاقب من يضبط متلبسًا بالحديـث باللغة العربية، أما الصلاة والدين فلم يكن لهما مكانًا في هذه المدرسة».

وكان التعليـم في عهد كرومر قد أنيط بالقسيس دنلوب الذي يقول عنه محمود شاكر: «فأسند التعليم إلى قسّيس مبشر عات خبيث هو: «دنلوب»ويضيف: «وجاء الاستشـراق الإنجليـزي؛ ليحـدث في ثقافة الأمــة المصرية صدعـا متفاقمًا أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه الاستشراق الفرنسي»، وهذا الصدع هو ربط ثقافة المصريين بالفرعونية.

ومـع التعليم والسيطرة عليه داخليًـا، فقد ابتدع الغربيون مسألة الابتعاث، فلمّا غــادر نابليون مصر بعـث إلى نائبه في مصر أن يبعث إليــه ٥٠٠ أو ٦٠٠ شيخًا من المماليـك، والهدف من هذه البعثــة، كما يقول محمود شاكـر في كتابه: «رسالة في الطريـق إلى ثقافتنا»نقــلًا عــن رسالة نابليون: «فـإذا ما وصل هــؤلاء إلى فرنسا يحجــزون مـدة سنة أو سنتـين يشاهـدون في أثنائها عظمــة الأمــة (الفرنسية)،

ويعتـادون على تقاليدنـا ولغتنـا، ولما يعودون إلى مصر يكـون لنا منهم حـزب يضم إلى غيرهـم»، وقد كتب محمد المنوني في كتابه: «يقظة المغرب العربي» أن المشرف الفرنسـي على إحدى البعثات الطلابية المغربية طلب أن يبقى الطلاب المغاربة مدة أطول في فرنسا بعد انتهاء بعثتهم؛ ليتشبعوا بعظمة فرنسا وحضارتها.

ونواصل مع محمود شاكر في حديثه عن محمد علي سرششمة أنه بعد أن استقر في الحكـم «وازداد إطبـاق «القناصل»، و«المستشرقين» على عقلـه وقلبه، وخاصة الفرنسيين منهم، وكان من تخطيط هؤلاء الاستيلاء على عقول بعض شباب البلاد من خلال الابتعاث إلى أوروبا بعامة وفرنسا بخاصة، ويقول محمود شاكر: «وسنحت لجومـار (أحد المستشرقين) أعظم فرصة باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوروبه، فبنى مشروعه... على شباب غض يبقون في فرنسا سنوات تطول أو تقصر يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبـا لفرنسا، وعلى مر الأيام يكبرون، ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرًا في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر».

وكأن مسلسل الابتعاث لم ينته حتى اليوم، فكلما خبت جذوة الابتعاث عادت من جديـد؛ ليتمكنوا من صنع نفر من أبنائنا على أعينهم؛ ليعودوا إلى بلادنا، فينفذوا الأجندات الغربية.

لئن حاول مؤلف الكتاب أن يقدم لنا ببحث علمي رصين عداوة الغرب للإسلام والمسلمـين منـذ أن ظهـر الإسلام، فما العمـل لمواجهة هـذا العداء؟ وهنـا أتذكر مقولـة عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه: (نحن قوم أعزنـا الله بالإسلام، فمهما ابتغينـا العـزة في غيره أذلنـا الله)، فحين نطلب العـزة فأمامنا مـا نتمسك به ما ذكـره الرسـول ﷺ: «تركتكم علـى المحجة البيضـاء ليلها كنهارهـا لا يزيغ عنها إلا هالـك»، فالسبيـل إلى وقف عداوة الغرب لنا هو أن نعـود أقوياء ينتشر في ربوع



بلادنا السلام والعدل الحقيقيين، فأي أمة تفتقد العدل لا يمكنها أن تواجه غيرها، ومما يعجبني وصف أحد جند الروم حين دخل معسكر المسلمين يتجسس عليهم فقال: «رهبان بالليل، فرسان بالنهار، يتساوون فيما بينهم لو سرق فيهم ابن قائدهم لأقاموا عليه الحد، وأضاف إنهم أحرص على الموت من حرص الروم على الحياة».

مقدمة المؤلف

الغرب والإسلام

غالبًا ما يتهم الغرب بأنه معاد للإسلام وللعالم الإسلامي، هذا هو الشعور العام في أي بلد مسلم، وتهدف هذه الدراسة إلى البحث في مدى صحة هذه الفكرة، أو هل هي من صنع الخيال؟ لقد أدى الوجود العربي في أسبانيا، والوجود التركي (العثماني) في أوروبا الشرقية إلى معارك على الأراضي الأوروبية، كما أن تجربة الحروب الصليبية في العصور الوسطى تركت ندوبًا في النفسية الغربية، وكذلك فعل الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط، فشرق آسيا وجنوبها في إثارة العداوات مع الإسلام، والشعوب الإسلامية، وثقافاتها، وحضارتها، ومرة أخرى فإن التفاعل المعاصر بين الغرب والقوى الإسلامية في الدول الإسلامية بسبب ما يطلق عليه بالصحوة الإسلامية قد زادت المخاوف من الإسلام، وعلى ذلك فإنه من الضروري على ضوء المعطيات التاريخية، والسياسات الدولية المعاصرة أن نسعى إلى معرفة إذا ما كان لدى الغرب عداء تقليدي للإسلام.

يعرف الجميع في الغرب معنى معاداة السامية (Anti-Semitism) بأنه معاداة فئة من الناس؛ لأنهم يدينون باليهودية، وكذلك العنصرية (Racism) بأنه معاداة فئة من الناس بسبب لون بشرتهم، لقد ظهرت فكرة العنصرية بسبب الاستعمار بينما تعود معاداة السامية التي انبعثت من الغرب لعدة أسباب: أحد هذه الأسباب اقتصادي؛ حيث نظر إلى اليهود بأنهم مقرضو المال، القساة القلوب، وكذلك الكراهية التي تسبب فيها العداء الاجتماعي الاقتصادي بين النصارى واليهود، وكان لهذه النزعة سبب إسلامي حيث قدّمت الدراسة التي قام به كتلرز (Cutlers) بعنوان: «اليهودي بصفته حليف للمسلمين» برهانًا مقنعًا بأن جذور العداء السامية في العصور الوسطى يعود إلى فهم النصارى بأن اليهود كانوا حلفاء القوة الإسلامية في أوربا، وفي هذه الأيام حيث تذوي اللاسامية (بافتراض أن



اليهود أصبحوا أعداء للمسلمين بسبب الصراع في فلسطين)، ويبدو على أي حال أن العداء للإسلام يزداد، ولدينا مقولتان تم اختيارهما عشوائيًا إحداهما ليهودي فرنسي، والأخرى لأحد المؤيدين لحزب المحافظين، وتعكسان هذا التفكير: فقد قال نائب رئيس لجنة اليهود الفرنسيين: «ليس في فرنسا مشكلة عنصرية، وأن المشكلة تجد طرقًا للاستمرار بظهور الإسلام»، (جريدة الجارديان الإنجليزية، ٢٦ أبريل ١٩٨٨م). وقال الوزير المنتمي لحزب المحافظين: «يجب إعادة فتح بريطانيا للإنجليز، ويجب طرد المسلمين إلى ديارهم إذا كانوا لا يستطيعون أن يعيشوا في بلد يسمح فيه لسلمان رشدي بحرية التعبير عن آرائه»، (جريدة الجارديان، ٢٩ أغسطس ١٩٨٨م). هاتان المقولتان تظهران خوفًا غير معقول من المسلمين، وتعكس الخوف من التقليد المعادي للإسلام.

ومن أجل الكشف عن جذور هذا التقليد المعادي للإسلام تضع هذه الدراسة أمامها هدفًا ذا ثلاثة فروع:

أولًا: أن تحدد اتجاه التقليد المعادي للإسلام من حيث ظهوره عبر العصور، أو عند ظهوره حديثًا.

ثانيًا: تحديد الأشكال التي عبّر فيها هذا الاتجاه عن نفسه، والتي يمكن تحديدها بأنها كانت دينية، ثم تفرعت فيما بعد إلى اتجاهات سياسية وعلمانية.

ثالثًا: تسعى هذه الدراسة لشرح طبيعة محتوى تلك الأشكال، ويجب على الباحث هنا أن يكون اختياريًا بسبب قيود الدراسة، ومن هذه القيود صعوبة متابعة العدد الكبير من الكتّاب النصارى الذين تناولوا الإسلام في العصور الوسطى، وكذلك ظهور عدد كبير من المستشرقين، أو المختصين في الشرق الأوسط، كذلك من هذه القيود صعوبة تناول كل ما كتبوا بصورة شمولية؛ لذلك سننحي هذه الدراسة إلى تناول نماذج من هذه الكتابات نراها كافية في هذا الاستعراض؛ لتكون مقدمة للتقليد المعادي للإسلام الذي يؤلف الأساس لفهم الغرب للإسلام.

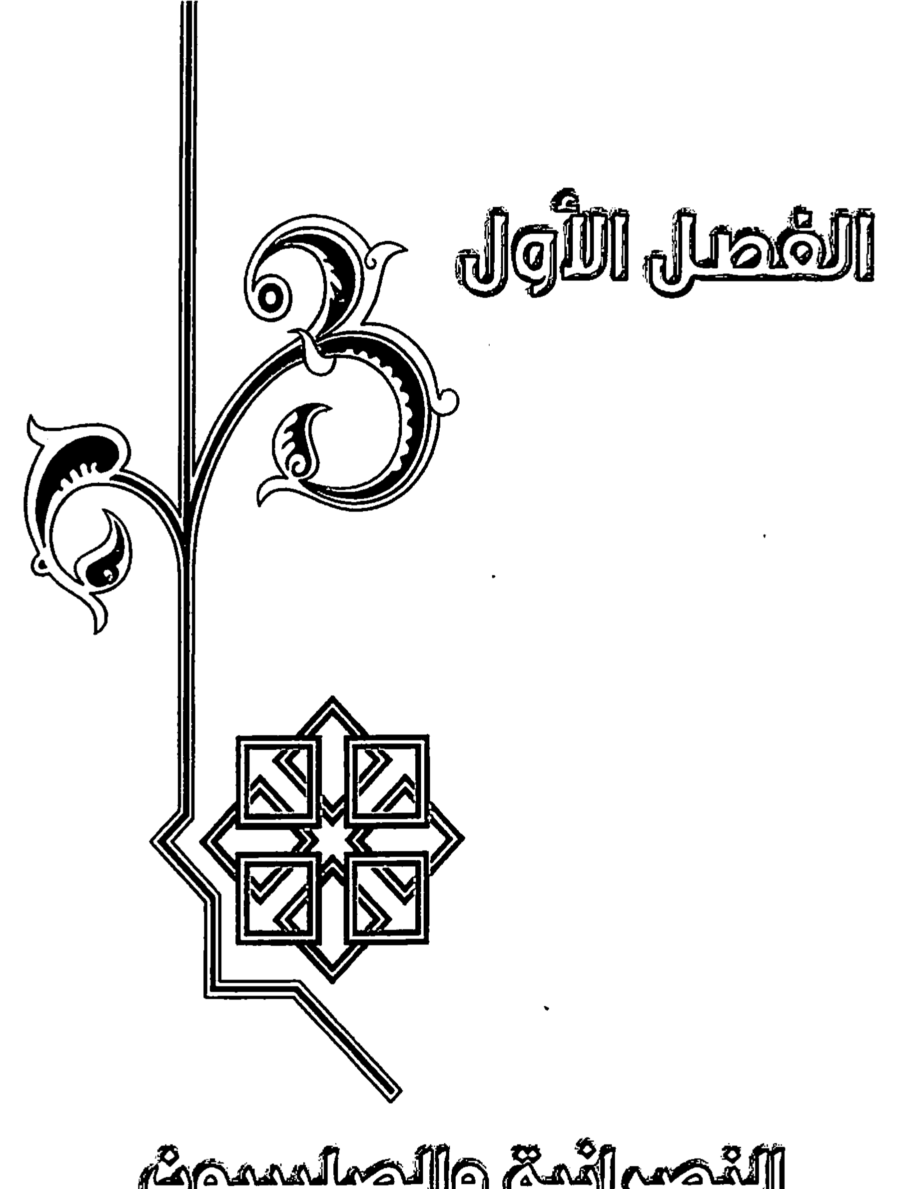
ومعلوم أن السياسة الدولية اليوم ترى أن الإسلام يقف عائقًا في سبيل تحقيق

المصالح الغربية المتمثلة في الاستغلال السياسي والاقتصادي للعالم الإسلامي، ولا تقصد هذه الدراسة إلى توجيه الاتهام، أو إلقاء المسئولية، ولكن هدفها هو طرح مجموعة من الحقائق تُبرز فهم الغرب للإسلام متمثلًا في أشكال عدة حتى اليوم، وإن أراد الغرب أن يفهم الأمر على غير صورته، فإن القرار والمسئولية تقعان على عاتقه وحده. إن العيش في مجتمع يتميز بالكِبْر العنصري، أو خداع النفس لا يمكن إلا أن يُشوِّه فهمَ الإنسان للحقائق الاجتماعية والسياسية. إن الكراهية وردود الفعل العاطفية تمنع دائمًا التفكير الواضح، وشبيه بهذا فإن الاهتمام بالمصالح الذاتية التي تظهر عدم المبالاة بشعور الآخرين يمكن أن يكون فضيلة في الغرب، ولكنه يُعَدُّ عيبًا في العالم الإسلامي، وفي عالم لم يستطع الغرب فيه السيطرة على الإسلام - ولن يقدر على ذلك -، فإن الحكمة تفرض على الغرب أن يحاول التعايش معه، ويعني هذا التعايش محاولة الفهم والاحترام المتبادل من أجل العيش سويًا، ولكن قبل إبداء الرأي في هذه المحاولة لابد أولًا من فهم الإسلام، والشعوب الإسلامية، والعالم الإسلامي.

إن هذه الدراسة تحاول أن توفر الحقائق التي تعكس التعصب، والكره، والعداء المستبطن في التفكير المعادي للإسلام في الغرب، ومن المؤمل أن تضع القواعد للباحثين في فهم الإسلام، وتوعيتهم بالأخطار المشحونة في التقليد المعادي للإسلام، ففي عالم مليء بالمعتقدات المختلفة التي تتعايش معًا من الضروري الفهم المتبادل لآراء الآخرين كما هي.



الفصل الأول



النصرانية والصليبيون

أصبحت جذور النصرانية راسخة لمدة تزيد على ستمائة سنة في الشرق الأوسط، وهي المنطقة التي بدأت فيها، وبعد ذلك وفجأة ظهر دين جديد هو الإسلام نزل على النبي محمد ﷺ في آفاق الجزيرة العربية، وانتشر بسرعة ليس فقط في الشرق الأوسط، بل وصل إلى أبعد نقطة في حدودها، مؤكدًا أنه جاء لإتمام الرسالات التي جاء بها الرسل والأنبياء السابقون، وأساسًا دين أهل الكتاب (النصرانية واليهودية)، وهنا شعرت النصرانية لأول مرة بأنها مهددة في عقر دارها، وكان أمام النصرانية ثلاثة خيارات:

أولها: أنه كان بإمكانها الترحيب بالإسلام؛ لأنه في النهاية يؤمن بالله نفسه، وكل أنبياء أهل الكتاب، كان بإمكانها أن تتعلم التعايش مع الإسلام، ولكن هذا لم يحدث تاريخيًا.

وثانيها: كان الخطر من الخيار الأول أنهم لو قبلوا الإسلام بصفته دين من الإله نفسه، فحينئذ يكون الله عز وجل قد أنزل إلى رسول آخر، وأن الرسالة الخاتمة هي الإسلام الذي جاء لإكمال الرسالات السابقة التي نزلت على أهل الكتاب، وهذا الاحتمال -يعني: أنهم سيصبحون مسلمين-، وهذا الاحتمال هدد قوة القساوسة، ومؤسسة الكنيسة، وبالتالي لم يجد أي اهتمام.

وكان الاحتمال الثالث أو الخيار الثالث الذي بدأ جذابًا للنصارى هو تكذيب هذا الدين، ومحقه من الشرط الأوسط إن كان ذلك ممكنًا.

إن الإسلام من خلال اعترافه بالنصرانية قد فرض على المسلمين أن يظهروا تقديسهم لعيسى عليه السلام، وأن يتعايشوا مع النصرانية، فليس في الإسلام إكراه الناس على اعتناقه، ولكن من خلال الاقتناع فقط، ولذلك عامل المسلمون النصارى بكرم في أثناء انتشار الإسلام في بلادهم، وكان اعتراف النصرانية بالإسلام معناه تقويض مكانتها، وقد أدركت النصرانية في ذلك الوقت أن بقاءها يلزمه تنازل الإسلام، وهكذا كان الحجر الأول قد ألقاه النصارى على الإسلام.

لم تكـن كتابات النصارى المتعصبة مبنية على دراسة نزيهة للإسلام، بل كانت مبنيـة على افتراضات وأفكار متكونة سلفًـا، وتحيزات، وغالبًا أكاذيب، فلم يدرس علمـاء النصارى الإسلام علـى أنه كيان مستقل، بل درسوه وفقًـا لما يجب أن يكون وفقًـا لوجهة النظر النصرانية، وهذه الكتابات هي التي وضعت القاعدة للفهم غير العقلاني للإسلام.

ولا يمكـن التقليل من شأن نتائج هذا الموقف حيث أصبح الغرب في موقف معاد للإسـلام إلى الأبـد، وخلافًا للإسلام لم تعـد النصرانية هي الديـن الرئيسي في الشـرق الأوسط حيـث ظهرت، ولكنها أنشأت مراكزهـا في الغرب، ومن ثم حرَّكت الغـرب لمحاربـة الإسلام حربًـا دينية، وبهذا العمـل وضعت حدًّا لفهـم متفتح واع للإسلام.

وظهـرت بعد موت المسيح طبقة القساوسة التي سعـت إلى الإبقاء على مكانتها المكتسبـة، وبهـذا جاءت المؤسساتيـة في النصرانيـة، وأصبح البابـا في روما أعلى مرتبـة في طبقة القساوسة الكاثوليك بينمـا كان للبروتستانت طبقاتهم الكهنوتية، ومراكزهـم في الدول الأوروبيـة، وكان موقف كل من الكاثوليـك والبروتستانت من الإسـلام واحد، فهو يهدد المكانة الحالية التي وصلـت إليها طبقات القساوسة، فلو آمنـوا بالإسلام، فستصبح وظائفهـم في خطر؛ لذلك كانت المحاولة لفهم ما يقوله الإسلام أمرًا لا يهمهم، وقد أصبح لطبقة القساوسة في الغرب على مر التاريخ سلطة ضخمـة، فقد سيطرت الكنيسة على الدولة حتى بلـغ من قوة الكنيسة أن البابوات المتتابعـين حينما نـادوا بشن الحرب علـى الإسلام كان على الملـوك أن يستجيبوا، وأن يتقدمـوا بجيوشهم ضد المسلمـين، وعلى مر التاريخ كانت حـروب النصرانية ضـد الإسلام، والشعوب الإسلاميـة مستمرة، وفيما يأتي بعضـ الفقرات المختارة مـن هذا التاريـخ. وسيكون التركيز في هذا الفصل على أولئـك الناس الذين كانت نظرتهـم للإسلام والمسلمين هـي المؤثرة والمحددة لموقف النصـارى، وعلى القرّاء الذيـن يرغبون في زيـادة الاطلاع أن يعـودوا إلى كتابات يوحنـا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩)، وبيتر المقدس (١٠٩٤-١١٥٦)، ومارتن لوثر (١٤٨٣-١٤٥٦).




أما يوحنا الدمشقي كما يوحي اسمه وُلِدَ في دمشق حيث كان والده يحتل منصبًا رفيعًا في قصر الخليفة الأموي، وحتى يوحنا نفسه خدم في القصر في الجزء الأول من حياته، ثم أصبح راهبًا فيما بعد وكرّس حياته قسًا على يد بطريق القدس، والتحق بدير القديس سباس قريبًا من القدس.

تناول يوحنا في كتابه (De Haerebius) الإسلام حتى عده النصارى أول مرجع في هذا الدين، حتى أصبح السبيل الذي اختطه هو: «المورد لكل الكتابات الجدلية ضد الإسلام في المستقبل»[1]، وفي هذا الكتاب تمسك يوحنا بفكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد ﷺ، وأنه ليس منزلًا، وحاول تكذيب النبي ﷺ بنشر إشاعات كاذبة بأن راهبًا نصرانيًا هو بحيرا قد ساعده في وضع القرآن، وقد اعتقد يوحنا أن محمدًا أصبح عارفًا بالعهد القديم، والعهد الجديد على أرجح الأقوال من خلال علاقته براهب عربي، وعندما تظاهر بالطيبة استطاع أن يكسب قومه، فقد أعلن أنه أُنزِلَ إليه كتاب مقدس من السماء، وعندما كتب في كتابه بعض الأشياء التي تستحق السخرية قدمه لهم على أنه شيء ينبغي تقديسه[2]. وأيّد يوحنا الأكاذيب التي كتبها الكُتّاب البيزنطيون الآخرون بأن النبي ﷺ كان يعاني من الصرع[3]، كما أنه عاب شخصية الرسول ﷺ؛ «لأنه نسب إلى الوحي الإلهي ما يبرر سلوكه الجنسي»[4]، وكان هدفه تصوير الإسلام بأنه دين يسمح بتعدد الزوجات، والجواري، والانغماس الجنسي، ومن أجل أن يؤيد قناعته حكى يوحنا رواية مزيفة كيف أجبر النبي ﷺ زيدًا على تطليق زوجته وتزوجها هو نفسه، وقد أطلق يوحنا على العرب كلمة السراسنة المأخوذة من اسم يهودي[5]، وقد أصبحت

(1) J.W.Voorhis, «John of Damascus on the Muslim Heresy,»in the Moslem World, vol. xxiv. No. 4 (October 1934),P.391.

(2) Ibid.p.392.

(3) Daniel Sabas, John of Damaskus on Islam: Leiden: E.J. Brill, 1972, pp.74-75.

(4) N.Daniel, Islam and the West. Edinburhg: University of Edinburgh press, 1966, p.4..

(5) J.W.Voorhis, Op.Cit. p.392.



كلمة السراسنة الاسم الشائع الذي يطلق على العرب في الكتابات المبكرة في الغرب حول الإسلام.

وهكذا أصبحت كتابات يوحنا الدمشقي وأمثاله مصدرًا لأية محاولة للكتابة عن الإسلام مباشـرة، وظل النصارى لعدة قرون يظهرون صورة من الجهل كمن وضع في سجـن محكم الإغـلاق لا يسمح فيه إلا للإشاعات عمـا يحدث خارجه، ويحاول هـذا السجين أن يكوّن صـورة لما يسمع بمساعدة أفكاره السابقـة، وقد كان الكتّاب الغربيـون قبل سنـة ١١٠٠م، في مثل هذه الحالـة بالنسبة للإسـلام حيث إنهم لم يعرفوا شيئًا عن الإسلام بصفته دينًا[1]، وعلى العكس فقد أصبحت كتابهم المقدس مصـدرًا لدراسـة الإسـلام، فمنذ ٧٠٠ وحتـى ١١٠٠ بعد الميـلاد استخدم الكتاب المقدسـ لاكتشاف الأصـل البعيـد للسراسنة في تاريـخ العهد القـديم[2]، واستمر الكتـاب المقدس هـو الأداة الفكرية الوحيدة الفعالة لأوائـل القرون الوسطى، ولكن البحث في الكتب المقدسة لم يكن في النهاية عونًا كبيرًا في شرح ظاهرة الإسلام[3]، ومع ذلك فلم يمض وقت طويل حتى بدا العالم الغربي يحتك بالإسلام مباشرة.

وكانت هجمات القساوسـة النصارى بعد يوحنا الدمشقي متوقعة حيث تركزت علـى عدد مـن الموضوعات الأثـيرة لديهم، ومن بـين هذه الموضوعـات حياة النبي ﷺ، والقـرآن الكريم، وجوانب عدة من الإسلام، وكان أشد هؤلاء عُنفًا وقسوة في هجومـه على الإسلام رجل فرنسي هو بيير موريسـ دي مونتبوازيه (Pierre Miu-rice de Montboissier) الـذي دعاه ملك أسبانيا إلى بلاده، وأصبح يعرف هناك بـ: بيتر المقدسـ (Peter the Venerable) (١٠٨٤م – ١١٥٦م)، وكان قسًّا كرّس نفسـه لدراسة الإسلام، جاعلًا همه الأساس تكذيب الإسلام، وقد فعل ذلك بطرق عديـدة، ومن ذلك أنـه هاجم النبي ﷺ حيث عـدّه شخصًا ماكرًا جـدًا، ومغرمًا بالقـوة، واستطاع تحقيق أهدافه من خلال السرقـة، والغزو، والحيلة، والقتل، ولم

(1) R.W.Southern, Western Wiews of Islam in the Middle Ages. Cambridge, Mass: Harvard University press, 1980, p.14.

(2) Ibid,p.15.

(3) Ibid,p.15.





يكن محمدًا ﷺ في نظر بيتر هذا نبيًا ولا رسولاً، ولكنه كان مضلاً، ورجلاً شريرًا، وتابعًا للشيطان(١).

ولم يعتقد بيتر بأن القرآن كتاب منزّل، بل كتبه محمد بالتعاون مع راهب مهرطق (مبتدع)، وأن النبي «أوجد قرآنه ونسخه في ذلك الشكل البربري الخاص به: أنه كتاب شيطاني»(٢)، وقام بنقل ترجمة بيتر للقرآن رجل إنجليزي من مدينة رثلاند في ليستر شاير اسمه روبرت الكيتوني (Robert of Ketton)، وبالطبع فقد كان عملاً غير دقيق لدرجة أنه احتوى على تسع فصول إضافية(٣)، ووزعت نسخ من هذه الترجمة في كل المكتبات الأوروبية(٤)، وفي الحقيقة فإن بيتر استخدم روبرت الكيتوني مع آخرين لإعداد ترجمات وثائق محمدية أساسية وكانت النتيجة مجموعة من الوثائق لفهم الإسلام التي حافظت على قيمتها حتى القرن السادس عشر.

وتكونت هذه المجموعة من ترجمة للقرآن، ومختصر لتاريخ العالم من وجهة النظر الإسلامية، ومجموعة من الأساطير الإسلامية حول الخلافة، وعرض لبعض الموضوعات في تعليم محمد ﷺ عرفت بمحاورات الجزيرة العربية، وظهرت كتابات في زمن مبكر عرفت باعتذاريات الكندي(٥).

وكان سوذرن (Southern) على صواب عندما كتب بأن الوضع قد تغير خلال القرن، وبخاصة بعد الحملة الصليبية الأولى، فإن الروايات الشائعة لحياة محمد، ولمبادئ دينه التي أصبحت شائعة لدى الكتّاب النصارى منذ الحملة الصليبية

(1) James Kritzeck, Peter the Venerable and Islam Princeton: Princeton University Press, 1964, p.145.
(2) Ibid,p.94.
(3) Ibid,p.94.
(4) H.Darman, Towards Understanding Islam. New York: Columbia University Press, 1948, p.33.
(5) R.W. Southern, the Making of the Middle Ages, London: Century Hutchimson, 1988, p.40.



الأولى كان من الطبيعي أن تكون غير مهذبة أو مفيدة، ولكن في الوقت نفسه ظهرت آثار لبعض المحاولات الجادة لفهم العقيدة المعادية، وكان هذا جهدًا هائلًا، ولم يكن وجود كثير من تعاليم محمد ﷺ المعروفة لدى النصارى؛ ليجعل الأمر أكثر سهولة مثل – آراء مألوفة حول الله، ونصائح معروفة، وأسماء مألوفة لأنبياء، وحكام في العهد القديم –، وكان شكلًا غريبًا جدًا، ومحيرًا جدًا، ومتنافرًا أن يمنع البحث والاستقصاء، وكانت هناك طريقة واحدة لتناول هذا الاضطراب (كما كان من المفروض أن تبدو) في مسألة الحق والزيف، ولكم أن تتصوروا كيف يمكن لمفكر في القرن الثاني عشر مطلوب منه إيجاد حل بالأدوات المتوفرة له؟! حيث كان يجب أن تعالج على أنها هرطقة، وأكثر غموضًا من أي هرطقة أخرى وجدت على مدى التاريخ النصراني، ولكنها كمثل تلك الهرطقات، فهي أكثر أو أقل إفسادًا متعمدًا للإيمان الصحيح، والذي استلزم التنفيذ باستخدام قواعد الجدل العادية[1]، وفي كل ذلك فقد كان مقدار البحث الذي يخضع للحقد الملتهب الذي قاد؛ لتشويه الحقائق، فأمر لا يمكن لأحد تقديره.

وانضم لبيتر منصر آخر، وإن كان متأخرًا عنه زمنيًا، وهو دومينكاني من بغداد اسمه ريكولدو من مونتر كروس (Ricoldo of Montercroce) (١٢٤٣م -١٣٢٠م) الذي أكد بدوره فكرة أن القرآن ما هو إلا من عمل الشيطان يهدف إلى تكذيب الكتاب المقدس، وعد كتابه المسمى: (Confutation Alcorani) أعلى مستوى تم التوصل إليه في معرفة الإسلام كدين في الوقت الذي كُتب فيه، ولم يحل محله أي كتاب لعدة قرون[2].

واعتقد ريكولدو أنه مادام الكتاب المقدس لم يشهد للقرآن، فلا يمكن للقرآن أن يكون من الله، بالإضافة إلى ذلك فقد اعتقد أن أسلوب القرآن الأدبي كان أقل من مستوى الله، وأن محتوياته عانت من التناقضات الداخلية، وخالفت الإنجيل، ولقد

(1) Ibid,p.39.

(2) J.W. Sweetman, Islam and Christian Theology, London: Luterwoth Press, 1945,p.159.

تسامح مع العنف، كما أن آياته ينقصها الترتيب، ولم تؤكد المعجزات[١].

وبينما كان النصارى يهاجمون الإسلام بهذه الصورة اجتاحت قوة أخرى من أواسط آسيا الأراضي الإسلامية، اكتسحت جحافلهم البلاد الإسلامية من إيران إلى الشرق الأوسط مدمرة الخلافة الإسلامية في بغداد، وقتلت الخليفة، ولاشك بأن النصارى كانوا سعداء بهذه الأحداث، وعقدوا تحالفًا مع المغول الوثنيين لهجوم مشترك على المسلمين، وقد عبّر أحد النصارى، وهو: ريموند لل (Raymond Lull) (١٢٣٥م-١٣١٦م) بوضوح عن هذه النظرة؛ حيث اعتبر بأن التتار «أخذوا قانون محمد إما باختيارهم، أو أن السراسنة أجبروهم على ذلك، وأن النصرانية كلها ستكون في خطر عظيم»[٢]، وبالرغم من أن الجهود الكبيرة التي بذلها النصارى؛ لتنصير المغول إلا أن ما حدث بدقة هو أن البابا أنوسنت الرابع أرسل سنة ١٢٤٥م مجموعة من السفراء يرأسهم قسيس فرنسيسكاني هو جين بلافو الكابريني (Jean Plavo de Caprini) إلى منغوليا، ولكن بدون جدوى، وتبع ذلك مناظرات حول النصرانية والإسلام، ولكن مما خيب آمال النصارى أن أسلم السلطان غازان خان (١٢٩٥م-١٣٠٤م).

وهنا اقتنع كثير من النصارى أن الإسلام لا يمكن إلغاؤه بسهولة، ولذلك فمن الضروري دراسة الإسلام دراسة جادة، وهذه لا يمكن إتمامها دون دراسة اللغة العربية، وفي مجمع فينا الذي عقد في سنة ١٣١٢م، أدخلت أهمية دراسة اللغة العربية في السياسة الرسمية للكنيسة الغربية، وسيتم دراسة اللغة العربية في باريس، وأكسفورد، وأفيجنون (Avignon)، وبولونيا، وسلمونكا، وكانت القوة المحركة خلف هذا القرار هو: ريموند لل.

لقد خاف النصارى في زمن يوحنا الدمشقي «سراسنة الجزيرة»، وفي زمن بيتر المقدس كان الخوف من المورسيكيين في أسبانيا، ولكن الخوف الجديد الذي سيطر على عقولهم تمثل في ظهور الأتراك في بلاد النصرانية اللاتينية، فقد كان فتح

(1) Ibid,pp.118-159.
(2) R.W. Southern, Western views of Islam, Op.cit, p.39.



القسطنطينية رمزًا لتدمير النصرانية الشرقية، وتحد للغرب، كما فعل الصليبيون في القـرن الحادي عشر، وهذا الذي جعل علماء العقيدة النصارى يشعرون بمرارة أكـبر وأكـثر إحباطًـا؛ لأن مشكلة الإسلام فقـط هي التي ظلت التحـدي الأساسي الفكري لسـلام أوربا النفسي والجسدي»[1]. ولم يكـن الكاردينال جون السيجوي (John of Segovia) (١٤٠٠م-١٤٥٨م) راضيًـا عن الترجمة القرآنية التي كتبها بيتر سابقًا، لذلك دعا عربيًا من سالمونيكا لمساعدته في عمل ترجمة أخرى للقرآن، كان جـون هـذا ناقدًا للمسائل التي أثارها أسلافه ذلـك أن شغلوا أنفسهم بمسائل ليسـت جوهريـة، مثل: هـل كان نبي الإسـلام حقًا نبيًـا؟ أما بالنسبـة لجون، فإن السـؤال الذي كان على النصارى أن يجيبـوا عنه هو: هل القـرآن كلمة الله أو لا؟ واعتقد جون بأنه مادامت الحرب مسموحًا بها في الإسلام، فقد كان تعبيرًا طبيعيًا للمسلمـين، ولكنها لم تكنْ كذلـك بالنسبة للنصارى، وبالتالي فـإن النصرانية لن تنجـح ضد الإسلام من خـلال الحروب المتتالية، ويجب علـى النصرانية أن تتبنى وسائل سلمية، وستكون حينئذ صادقة في السعي نحو أهدافها.

ومـن الذين عاصـروا جون نيكولاس من كـوزا (Nicholas of Causa) الألماني (١٤٠١م-١٤٦٤م) الذي أصبح كاردينالًا سنة ١٤٤٨م، وقد واصل نيكولاس دراسة القـرآن الكـريم التي بدأهـا جون، وزعم بأن القـرآن كان رواية أخـرى للنصرانية النسطورية، وأن المشاعر المعادية للنصرانية أدخلت إليه من قبل بعض المستشارين اليهـود للنبي، وبالتالي فإن الإسلام يجـب أن يعالج على أنه خلاف بين النصرانية الغربية والنسطورية، ولكن جين جيرمـين (١٤٠٠م-١٤٦١م) (Jean Germain)، وهو: قس فرنسـي لم يؤيد منطق التاريخ الذي استخدمه معاصروه، وبدلًا من ذلك نـادى باندفاعة أقـوى ضد الإسلام تنتهـي بتدميره، واعتـبر أن الخطر الإسلامي يشـكل تهديـدًا لمستقبـل النصرانيـة، وكانت جهـوده منصبة علـى تحريك حكام الغرب؛ ولذلك نصح شارلز ملك فرنسا وحكام أوربا الآخرين ليحملوا السلاح ضد الأتراك.

---

(1) Ibid,p.86.

ناقش أرياس سيلفيوس (١٤٠٥م-١٤٦٤م) (Areas silvius) الإيطالي الذي أصبح البابا بيوس الثاني سنة ١٤٥٨م بأن خسارة القسطنطينية للأتراك في عهد محمد الثاني قد جعلت الأتراك أعداء للنصرانية، وكتب يائسًا في ١٤٦٠م إلى السلطان العثماني نفسه مدافعًا عن الغرب بأنه صاحب حضارة متفوقة، وأنه جرب في الحرب، وقد أنذر الأتراك أن لا يشعروا بالثقة الزائدة من انتصارهم، ومن التفكير في غزو أمم أوربا الأخرى، ثم وجه حديثه قائلًا: «إذا كان سلطان الأتراك يريد أن يصبح أعظم، وأقوى رجل، وأكثر رجل شهرة في زمنه، فإن سألت كيف يمكن هذا؟ فالأمر ليس صعبًا، ولم تسأل شيئًا بعيدًا، إنه في العالم كله قليل من الماء يمكن تعميدك به، وأن تتجه إلى المذبح، وأن تؤمن بالكتاب المقدس، افعل هذا، ولن يكون هناك أمير في الدنيا يتفوق عليك في المجد، أو يساويك في القوة، سوف ندعوك إمبراطور الإغريق والشرق، وأن الأرض التي تحتلها الآن بالقوة ستصبح حقًا لك، وسيقدمك كل النصارى، ويتخذونك قاضيًا، وأنه من المستحيل أن تنجح مادمت تتبع القانون الإسلامي»[١]، وقد أشار البابا بيوس الثاني في رسالته بوجود قواعد مشتركة كثيرة بين الإسلام والنصرانية، مثل الإيمان بإله واحد، وخلود الأرواح، والحياة بعد الموت، ولكن ثمة فوارق حول طبيعة الإله بالإضافة إلى ذلك ناقش أن العهد القديم الخاص باليهود وبالأمميين لم يحرف، ولكن كل منهما دعم الآخر، وكيف يمكن لكتابين في مثل وزنهما أن يكونا خاطئين؟ الآن السراسنة قالوا ذلك؟ ولم يعتقد البابا بيوس الثاني أن الإسلام دين معقول[٢].

في الوقت الذي كان الهجوم السابق كله موجه من الكنيسة الكاثوليكية، فإن الهجوم الآن موجه من البروتستانت بزعامة مارتن لوثر (١٤٨٣م-١٥٤٦م) (Martin Luther) الذي تسبب خلافه مع الباب في إيجاد انقسام في النصرانية في العصور الوسطى، وفي الوقت نفسه كان هجوم الأتراك على أوربا أكثر تهديدًا وإزعاجًا، وقد ساعد الهجوم التركي قضية لوثر بطريقة غير مباشرة؛ حيث كان

(1) Ibid,p.100.
(2) Ibid,p.102.



اهتمــام البابا منصبًــا على المسلمين، فلــم يستطع أن يثير الملــوك لتدمير الحركة البروتستانتيــة[١]، أمــا بالنسبــة للوثــر فليس الأتــراك وحدهم هم الــذي يهددون النصارى، بل دينهــم أيضًا، وقد استنكر لوثر الاثنين، وعد الأتراك بأنهم القوق[٢] في إنجيــل القديس يوحنــا[٣]، وقرأ سنــة ١٥٢٩م ريكالدو المسمــى (Confutaatio Alcorani)، وكتــب لوثــر رسالتين عن الأتــراك: الأولى هــي: (Vom Kriege die Tuerken)[٤]، والثانية: (Heerpredigt Wider die Tuerken).

وبالإضافــة إلى ذلــك فقد قرأ ترجمــة معاني القرآن الكــريم في اللاتينية التي أعدهــا تيــودور بيليانــدر (Theodor Bibiliander)[٥]، وفي البدايــة عارض لوثر تحرك الكنيسة لتدمير الأتراك مطالبًا إياها بالتسامح، فقد عد «الدخول في حرب ضد الأتراك ما هو إلا معاداة لله الذي يعاقبنا على ذنوبنا عن طريق الأتراك[٦]، ولم يكــن لوثر يقول هذا شفقة بالأتراك، بل على العكــس إنها خدمة لمصالحه هو؛ لأنه عــد الكنيسة الكاثوليكية فاسدة إلى درجة أنها لا يمكن أن تدخل في حرب صليبية، لقد عد لوثر كلًا من الأتراك والبابا أعداء للنصرانية؛ حيث أن العدو الأول اضطهد النصرانيــة من الخارج بينما فعل ذلك الآخر من الداخل، ورأى شرعية موقفه من خــلال الكتاب المقدس بمقولة أن الكتاب يخبرنا (بأن مستبدين متوحشين يجب أن يدمروا ويخربوا النصرانية إعــدادًا ليوم القيامة، أحدهما (يحقق غرضه) روحيًا من خلال الخداع، أو العبادة المزيفة، وعقائد مخالفة لعقيدة النصرانية الصحيحة

---

(1) E.Grislis, «Luther and the Turks, part II». In the Muslim world vol.LXIV. No.4 (October 1974). P.284.

(٢) مــن قصص الإنجيل أن القوق Gog إحدى الأمتين التي حاربت في أمجدون بقيادة الشيطان وإرادة الحرب.

(3) G.Simon, «Luther's Attitude towards Islam». In The Muslim World.vol.xxi. No.3 (July 1931).p.258.

(4) ...

(5) Ibid., p.259.

(6) U.Wolf, «Luther and Mohammedanism». In the Muslim world vol.xxxi. No.2 (April 1941),p.162.





والكتاب المقدس: إنه البابا وبابويته، والأخرى خارجية بالسيف المادي الأكثر ترويعًا خارجيًا، وتمثل ذلك في الأتراك، وهكذا فإن نهاية العالم وشيكة، فإن الشيطان يجب أن يهاجم النصرانية بعنف بقوتيه كلتيهما في أكثر الصور وحشية)[١]، وقد صور الأتراك على أنهم من البرابرة، «وبالتأكيد هم آخر عذاب وأشده قسوة ضد المسيح الذي به يسكب البقية الباقية من غضب الله ضد مملكة المسيح... إنهم يتصرفون كأنهم الشيطان الغاضب»[٢]، وبهذا العنف يرى الأتراك بأنهم يضعون «بيتك ومنزلك في النار، يأخذون أبقارك، وماشيتك، ومالك، وممتلكاتك، يطعنون حتى الموت، يغتصبون أو يقتلون زوجتك وابنتك أمام عينيك، يقطعون أطفالك إلى أوصال، ويضعونهم على أوتاد سورك، ويقودونك بعيدًا إلى تركيا، ويبيعونك كالكلب حتى تخدم بقية حياتك من أجل قطعة من الخبز، وشربة من الماء في شكل دائم نهارًا وليلًا، يقودونك بالعصي والهراوات، ومع ذلك لا تأخذ راتبًا، أو حتى كلمة شكر»[٣].

وكتب لوثر بأن الأتراك قبضوا على النصارى الذين لم يستطيعوا المشي، وطعنوهم حتى الموت دون النظر إلى أعمارهم، «بينما الذين أخذوا إلى تركيا بيعوا مثل البقر والخنازير غير ملتفتين إلى من هو الأب، أو الأم، أو الطفل، أو الزوجة، تباع الزوجة في اتجاه، ويباع الزوج في اتجاه آخر، ويحدث الشيء نفسه للوالدين والأطفال»[٤].

وغيّر لوثر فيما بعد طريقته السلبية مع الأتراك بإصداره أوامره للنصارى بقتل الأتراك، ودافع عن هذا الرأي بقوله: «إن من يقاتل الأتراك في حرب هم بدأوها يجب أن يعتبر أنه يقاتل عدوًا لله، وكافرًا بالمسيح، وبالتأكيد الشيطان نفسه؛ ولذلك عليه أن لا يقلق في أمر قتله للتركي الذي يمكن أن يريق دمًا بريئًا

(1) E.Grislis, Op.cit, pp.276-77.
(2) E.Grislis, Luther and the Turks. Part I. (the Muslim World vol.LXIV, No. 3 (July 1974), p.185.
(3) E.Grislis, «Luther and the Turks, part II»,Op.cit, 276-77.
(4) Ibid,p.277.



أو يقتل نصرانيًا، بل يجب أن يكون متأكدًا أنه يقتل عدوًّا محكومًا عليه، وفقًا لكتاب دانيال بنار جهنم؛ لأنه عدو للمسيح»[1]. أما أولئك الذين يقتلهم الأتراك، فيعدون في صحبة القديسين في الجنة، وقد نصح لوثر الألمان كذلك بأنه عندما استولى الأتراك على مدنهم وقراهم أن يتبعوا سياسة الأرض المحروقة، وذلك بحرق «منازلهم وبيوتهم، وتدمير كل شيء حتى لا يجد الأتراك سوى الأطفال الصغار الذين سيقتلونهم، ويقطعونهم إربًا إربًا عندما يقودوننا إلى الأسر على أية حال»[2]، وقد ولدت هذه الصور التي اختلقها لوثر احتقارًا وكرهًا للإسلام، وفي الحقيقة أكد لوثر بأن الأتراك قد تفوقوا على البربرية في التاريخ، و«السبب في ذلك أنهم مأمورون في شريعتهم بقتل ونهب أكبر عدد ممكن»[3]، ويرى لوثر أن هدف تعاليم القرآن «ليس فقط تحطيم الديانة النصرانية، ولكن تحطيم حكومات العالم كذلك»[4]، وليس من المدهش أن يتوصل لوثر إلى هذا الاستنتاج.

لقد اعتقد لوثر بأن الشيطان هو الذي خلق القرآن، وجادل بأنه كما أن البابا هو عدو المسيح، فكذلك الأتراك هم الشيطان بعد عودته إلى الحياة، واعتقد لوثر بأن ما كان يتعلمه الأتراك من القرآن كان حول الشيطان وليس الله، وأن الشيطان هو الذي كان يوجههم؛ لتحطيم العقيدة النصرانية»[5]، وأن يأخذوا السيف، ويشرعوا في قتلهم[6]، وقد اعتقد لوثر أن الإسلام قد «تولد من عقيدة النصارى، واليهود الوثنيين»، وجادل متحديًا أن النبي محمدًا ﷺ لم يقل على أنه رسول الله، واعتقاد الإسلام بزيف عقيدة التثليث وبطلانها، وجادل أيضًا بأن المسلمين «يضعون منطقهم في أمر صغير بقولهم: إنه لم يكن له زوجة، ولذلك لا يمكن أن يكون له ولد»[7]، واعتقد لوثر أيضًا بأن المسلمين قد عبدوا محمدًا ﷺ على أنه

---

(1) E.Grislis, part I. op,cit., 183.
(2) Ibid,p.183.
(3) Ibid,part II. Op.cit. p.277.
(4) Ibid,p.277.
(5) Helmut T.Lehman, Luthers Work Philadelphia Fortress press. 1976, p.181.
(6) Ibid,p.179.
(7) Umhau Wolf, Op.cit, p.170.





صنم؛ لأن التركي يرى سيدنا المسيح ومملكته على أنها لا شيء مقارنة بنفسه ونبيه محمد، ومع ذلك فالأمر خرافة حقًا[1]، لم تضف آراء لوثر أي بعد جديد للكراهية التي سبق أن زرعت في عقول النصارى، وجعله الأتراك ضحايا من خلال كرهه للإسلام، وبالإضافة لذلك فلكون مؤسس الحركة البروتستانتية لم يفتح بابًا جديدًا لدراسة الإسلام، بل على العكس أكد الآراء المعادية للإسلام الموجودة من العصور الوسطى في أوربا.

وهكذا كانت المناهج التي درس بها النصارى الإسلام من النوع المتعصب المتحيز.

ما المنهج المتعصب؟ إن فحصًا لمختلف جوانب هذا المنهج بالنسبة لدراسة الإسلام ستعطي القارئ فكرة كيف كانت دراسات النصارى المتعصبة ضد الإسلام تظهر صورة مشوهة للإسلام.

أولًا: نجد التحريف المتعمد للمصادر، فبدلًا من دراسة القرآن الكريم، والحديث الشريف كانت معظم البراهين تؤخذ من المبتدعة، ومن تجربة الصليبيين، وانطباعات الرحالة، والترجمات غير الدقيقة، والتحريف المتعمد للمراجع، وكانوا في هذا الأمر غير أمناء، ليس فقط مع الإسلام، ولكن مع أنفسهم.

وثانيًا: تمت هذه الدراسات بأفكار مسبقة لتناسب المصالح المبطنة، وفي الحقيقة «تلك الحقائق التي تميل إلى إظهار زيف الإسلام كانت مفضلة على كل ما سواها»[2].

وثالثًا: المبالغة المستمرة، وهو أمر مهم جدًا في تعصبهم، وكان هذا واضحًا ليس فقط في تناولهم حياة الرسول ﷺ، والأمور الجنسية في الإسلام، ولكنهم سخروا من كل جوانبه، وضخموها أحيانًا من أمر تافه، أو شوهوها حتى لا يمكن التعرف عليها، وفي الحقيقة طرحت المعلومات الصحيحة بزعم أنها غير سليمة»[3].

(1) Ibid,p.171.
(2) N.Daniel, Op.cit., p.240.
(3) Ibid,p.244.



ورابعًا: إن عـداوة النصـارى للإسـلام أعمتهم حتـى أنهـم لم يستطيعوا أن يـروا أي خير فيه، إنهـم أساؤوا تمثيل الإسلام «أحيانًا مـن أجل التسلية، ولكن في أكـثر الأحيان لخدمة الأهـداف العليا للكنيسة»[١]، ومهما بلـغ مستوى علمائهم لم يستطيعـوا أن يكونوا موضوعيين.. وهكذا، فعندما «يواجهون بالاختيار بين قصص بديلـة أقـل أو أكثر تأييدًا لمحمـد ﷺ أو للمؤسسـات الإسلامية، فـإن الدارس في العصـور الوسطى للرسـول، والمنتقدين لدينه تصرفوا وفقًـا للافتراض أن ما كان أكـثر ضعفًا في مصداقيته بدا لهم أنـه غالبًا هو الحق»[٢]، وإذا ما كان الخيار بين كاتب مسلم حول الإسلام، وآخـر نصراني، فإنهم يختارون الأخير لشهادته، وكان الاتجـاه العام حتى نهاية القـرن السابع عشر مُصِّرًا على قبول المقولات الزائفة[٣]، وقـد عدُّوا الكتـاب المنزَّل على المسلمـين خطرًا على وجـود النصرانية، كان هناك كراهية على نطاق واسع ضد الإسلام بين كتَّاب العصور الوسطى، وكل واحد منهم بذل وسعه؛ ليسهم في المعلومات الخاطئة، أو عدم تقدير المعلومات حول الإسلام، إن الآراء والمواقف التي تطورت من هذا أعدت أوروبا، وحركتها للحرب مع المسلمين.

الحروب الصليبية:

أصبحـت النصرانية الشرقية التـي تتخذ من القسطنطينيـة عاصمة لها قوية جـدًا، وأرادت أن تنشر العقيدة النصرانية في جنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط؛ لأن (الإمبراطورية) الإسلامية التي كانت في بغداد -وكانت قوية يومًا ما- أصبحت ضعيفة، ولكن هـذا الحدث أحبط بسبب المسلمين الذين ظهروا في آسيا الصغرى، وكان هؤلاء هم الأتراك السلاجقة. لقد تحدوا الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٧١م حـين هزم السلطان ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي رومانس الخامس ديوجنس (Romanus IV Diogenes) في معركـة ملازكـرت في أرمينيـا، لقـد أبيدت قوات رومانوسـ وهو نفسـه اقتيد إلى ألب أرسـلان، وقد أظهر الحاكـم التركي الرحمة

(1) Ibid,p.244.
(2) Ibid,p.248.
(3) Ibid,p.249.





عندما ألقي رومانوس على الأرض؛ ليضع ألب أرسلان قدمه بصورة افتعالية على رقبة الإمبراطور، وقد أعجب السلطان شيئًا ما بالإمبراطور البيزنطي ذي الأكتاف العريضة، وبعد أسبوعين أطلق سراحه[1]، وعندما وصل الإمبراطور إلى القسطنطينية عزله نبلاؤها، وبالرغم من أن أرسلان، وابنه ملك شاه لم ينويا فتح القسطنطينية، فإنهما لم يكونا ليسمحا بأية أعمال عدائية أخرى ضد الإسلام، وعندما استولى ألكسيس كومنين (Alexius Commenus) على السلطة في بيزنطة سنة ١٠٨١م كان طموحه أن ينشر الجامعة النصرانية، وعندما شعر بتهديد الأتراك كتب رسالة إلى روبرت كونت فلاندرز (Robert count of Flanders)، وكذلك للبابا أربان الثاني (Urban II) سنة ١٠٩٣م يناشد البابا أن يرسل قوات؛ لأنه من الأفضل أن تسقط القسطنطينية في أيديكم بدلًا من أن تسقط في أيدي الكفار، فهذه المدينة تمتلك أقدس آثار المسيح... جزءًا من الصليب الحقيقي الذي صلب عليه[2]، وقد اهتم البابا بهذه المناشدة، فدعا إلى اجتماع عام لرجال الدين، والعامة، والنبلاء، والملوك في مدينة كليرمونت في فرنسا في نوفمبر ١٠٩٥م حيث ألقى فيهم خطبة رنانة قائلًا: «أيها المحاربون النصارى الذين تبحثون دون جدوى عن مبرر للحرب افرحوا، فقد وجدتم المبرر الحقيقي، أنتم الذين كنتم دائمًا رعبًا على إخوانكم اذهبوا وحاربوا البرابرة، اذهبوا وحاربوا من أجل تحرير الأماكن المقدسة، أنتم الذين تبيعون من أجل الحقير، ابذلوا قوة أسلحتكم لإنقاذ أرواح الآخرين، أنتم المسلحون بسيف المذكبين، اذهبوا وحققوا الجائزة الأبدية، فإذا انتصرتم على أعدائكم فإن ممالك الشرق ستكون جائزتكم، وإذا هزمتم فسيكون لكم شرف الموت في المكان الذي مات فيه عيسى المسيح، وأن الله لن ينسى أبدًا أنه وجدكم في معارك مقدسة، إذا كان لابد من الدماء فاستحموا بدماء الكفار يا جنود النار أصبحوا جنود الله الحي»[3].

(1) R.Payne, the Dream and the Tomb. London: Robert Hale. Ltd., 1986, p.27.
(2) Ibid,p.29.
(3) Ibid,p.34-35.



والتهبت حماسة الحشـد وصاح «إن شاء الله»، وسقطوا على ركبهم، واعترفوا بذنوبهـم، وأخـذ القس أدهمار مـن مونتيـل (Adhemar of Monteil) صليبًا من القماش من البابا، وأخاطه على ذراعه اليمنـى، وأصبح رمزًا للصليبيين، وواصل البابا رحلاته في فرنسا مثيرًا الناس، وأصبح أدهمار المندوب البابوي للصليبيين.

وانتقـل صـدى الدعوة الصليبيـة إلى أوربـا، وإلى الملوك والفرسـان والجنود، وكذلك النصـارى العاديين، وجندت النساء والأطفـال لمحاربة المسلمين في الشرق الأوسـط، لقد جـاؤوا بالألوف من بريطانيـا، وفرنسا، وألمانيـا، واستثنيت أسبانيا مـن قبـل البابا أربان الثـاني؛ لأنها كانت تحارب العرب في دولتهـم، وقد أعطى في الحقيقة الغفران للأسبان الذين أرادوا أن يذهبوا، ومنعهم من الذهاب؛ لأن البابا لم يـرد للانتصـار العسكري ضـد المورسيكيـين أن يتعرض للخطـر بسبب مغادرة المحاربـين»[1]، وقد بعث البابـا النشاط في كل المؤسسة الكنسيـة؛ لتحريك شعوب أوروبا في الدول الأخرى.

وقـد أخـذ القس في كل قريـة ومدينة في تسجيـل النـاس في الحملـة الصليبية، وغالبًـا ما واجههم بعض النـاس بقولهم: «إن المسلمـين لم يؤذونني، فلماذا أحمل الصليـب ضدهـم؟»، وكان الجـواب يأتيـه: «بأنه لو فكـر جيدًا، فإنـه سيفهم أن المسلمين يهـددون كل النصـارى»[2]، وكانت الاستجابة لدعوة البابـا أربان الثاني سريعـة حتى أن بعضـ القساوسة مثل بيـتر الناسك تحرك بحماسـة خلال ألمانيا وفرنسا لتكوين جيش، وانطلقوا إلى الشرق الأوسط سنة ١٠٩٦م، وفي طريقهم إلى القسطنطينيـة هاجموا حتى القرى المسيحية، وهاجمهم الأتراك بعنف، وذبحوهم لولا تقدم الإمبراطور ألكسس كومنين البيزنطي لإنقاذهم.

لقد كانـت انطلاقة الصليبيين الرسمية سنة ١٠٩٧ بقيـادة النبلاء الفرنسيين مـن أمثال: روبرت حاكـم نورماندي، واللوردات النورمان، مثـل بوهيمند وتنكريد،

(1) J.Riley-Smith, What were the Crusaders? London: the Macmillan Press, 1977, p.24.
(2) Ibid,p.30.

وكونـت بولواز، وبالدوين من بولونيا. لقد استولى الصليبيون على أنطاكيا، والرها، والقدس، وأسسوا ممالك صليبية، وبحلول عام ١١١٨م كان معظم سوريا وفلسطين تحت سيطرة الصليبيين، وكانت المجازر واسعة جدًا حتى أن دماء المسلمين وصلت إلى الركب عندما استولى الصليبيون على القدس[١]، وسواء كان هذا صحيحًا أم غير ذلك، فإن عدد القتلى كان عظيمًا جدًا، ولم يكن المشاركون في الحروب الصليبية كلهم ملوك، أو نبلاء، أو فرسان، أو جنود مدربون، بل على العكس كانت غالبيتهم وفقًا لأحد التقارير من «المجرمين، والرجال الخطيرين، والشريرين، والعصاة، واللصوص الذين لا يحترمون الدين، وكان منهم قتلة وطفيليون، والذين يقسمون الأيمان الكاذبة، والزناة، والخونة، والقراصنة، وأبناء الزنا، والسكارى، والمغنيين، ولاعبي القمار، والمقلدين، والممثلين، والرهبان المرتدين، والراهبات العاملات في البغاء العلني، والنساء اللاتي تركن أزواجهن للعيش في المواخير، أو الرجال الذين تركوا زوجاتهم ليأخذوا غيرهن»[٢]، مثل هؤلاء لم يتسببوا في خلق فوضى شديدة فحسب، بل سجل مؤرخ عربي حالات من أكل لحوم البشر، وفي سنة ١٠٩٨م عندما غزا الصليبيون تحت قيادة بوهيمند مدينة المعرة السورية قتلوا سكانها، ولكن أسوأ من ذلك أن المؤرخ الحولي الإفرنجي رودلف من كين (Rudolph of Cean) كتب أن القوات الصليبية في المعرة غلت الوثنيين البالغين في قدور الطهي، وطوقوا الأطفال على الأوتاد وشووهم»[٣]، وكتب القادة في السنة التالية إلى البابا أن مجاعة في المعرة أجبرت الرجال على أن يتغذوا على لحوم السراسنة[٤]، مثل هذا التصرف مهما كان سببه إنما بذر بذور الكراهية لدى المغلوبين ضد الغالب.

وعندما استطاع القائد التركي عماد الدين زنكي أن يستعيد شمال سوريا

---

(1) G.E. Perry, The Middle East: Fourteen Islamic Centuries. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall Ltd., 1983, p.78.

(2) R.C.Finucane, Soldiers of the Faith: Crusaders and Muslims London: J.M. Dent&Sons Ltd., 1983, p.39.

(3) Amin Maalouf, the Crusades through Arab Eyes. London: Al-Sagi Books, 1984, pp.38-39.

(4) Ibid,p.39.



بحلول عام ١١٣٠م، ومدينة الرها سنة ١١٤٤م أطلق البابا يوجينوس الثالث (Eugenius III) الدعوة لحملة صليبية ضد المسلمين، واستجاب لهذه الدعوة ملك فرنسا لويس السابع، وملك ألمانيا كونراد (Conrad)، واستأنفت المعارك، وكانت هذه هي الحملة الثانية.

وواصل نور الدين زنكي ابن عماد الدين الصراع ضد الصليبيين، وأخذت دمشق سنة ١١٥٤م، بينما استولى أحد قادة صلاح الدين العرب على مصر سنة ١١٦٩م، وبعد وفاة نور الدين ١١٧٤م تولى صلاح الدين الحكم في (الإمبراطورية) الإسلامية، وأصبح أحد أبرز القادة المناوئين للصليبيين، واستطاع أن يستعيد القدس سنة ١١٨٧م، وهذا ما دعا الباب جريجوري الثامن (Gregory VIII) إلى إثارة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد المسلمين، وأخذ الراية ضد الإسلام في هذه المرة ملك بريطانيا ريتشارد الأول، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وفردريك باربروسا ملك ألمانيا (Frederick Bar Barossa)، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا شيئًا ضد صلاح الدين، وعندما فتح صلاح الدين القدس منع قواته من ارتكاب المجازر، أو إراقة دم النصارى، وقد عامل الفرسان باحترام، وأطلق سراحهم، أما أولئك النصارى الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا الفدية، أو لم يملكوا وسائل المواصلات لمغادرة المدينة، فقد دفع عنهم صلاح الدين الفدية، ويسر لهم الترتيبات بنفسه، وليس مدهشًا -حينئذ- أن نجد الصليبيين «معجبين بالقائد المسلم الذي كان عنده فضائل افترضوا أنها مسيحية»[١].

ومن أسوأ وقائع هذه الحملة تحت قيادة ريتشارد الأول كانت المذبحة التي قتل فيها ٢٧٠٠ مسلم صبرًا، كانوا سجناء في مدينة أكرا سنة ١١٩١م؛ حيث اقتيدوا مقيدين ثم ضربت أعناقهم، حاول النصارى تبرير فعلتهم هذه التي تعد في نظر المسلمين استشهادًا، ومن جهة أخرى كان صلاح الدين كريمًا حينما فتح القدس، ولكن بعد هذه المذبحة كان يقتل أسرى النصارى من كلا الجنسين»[٢]، ولكن عندما

(1) P.H.Newby, Saladin in his Time. London: Feber&Faber, 1983, p.202.

(2) R.C.Finucane, Op.cit., p.99.

طلب أحد منه المساعدة، فإنه يستجيب مباشرة، ويروي لها مؤرخ عربي، وهو: بهاء الديـن بن شداد قصة لامرأة من الفرنجـة جاءت إلى معسكر صلاح الدين تتوسل مـن أجل ابنها المفقود، فأرسل صلاح الدين أحـد جنوده إلى السوق؛ ليرى إذا كان الطفل معروضًا للبيع أن يشتريه ويعود به، وفي خلال ساعة كان الطفل قد أعيد إلى أمه، وحالما لمحت الأم طفلها وقعت على الأرض، ومرغـت وجهها بالتراب، ورفعت رأسهـا إلى السماء، ولكننا لم نفهـم ما قالت»[1]، وفي أحيان أخرى لم يهمل صلاح الديـن أولئـك الذين أظهروا وحشية ضـد المسلمين، وكان أحد هـؤلاء أمير الكرك همفري (Humphry) الذي كان قد سلب قوافل المسلمين، وقتلهم، وعذبهم، وأقسم صـلاح الدين أنه إذا مـا سقط في يده أنه سيقتلـه، وفي معركة حطين سنة ١١٨٧م سقط بعض الفرسان في الأسر، وكان من بينهم، فقتله صلاح الدين بضربة واحدة بالسيف، ولكنه عفا عن الآخرين[2].

وبنهايـة القرن الحادي عشـر، وبداية القرن الثاني عشـر كانت «صورة النبي، وطبيعة الإسلام قد تكونت في أوربا، وجمعت إلى بعضها في أحاديث المقاتلين الذين عـادوا إلى أوربا، وكذلك الإداريين الذين كانوا خلـف صفوف القتال، وقدمت هذه الصـورة في المدارس والأديرة بشكل مناسب للعقلية الغربيـة»[3]. لقد أنتجت هذه الصورة أساطير «حول النبي، والتخيلات الوصفية الغربية للممارسات الإسلامية، والتي تغيرت قليلًا من جيل إلى آخر»[4]، وقد أكد بعض الذين رافقوا الملك ريتشارد في حملته الصليبية من أمثال أبوت جواشم من فيور (Abbot Joachim of Fiore) بـأن هزيمـة المسلمين فقط هي التي يمكـن أن تجدد مكانة النصرانيـة، وأكدوا له كذلك بأنه سيهزم صلاح الدين.

(1) Francesco Gabrieli, Arab Histoirians of the Crusade. London:., 1984, p.III.

(2) P.M.HOLT, the Age of the Crusades. London, Longmans, 1986, p. 57.

(3) R.W.Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages. Mass: Cambridge: Harvard University Press, 1980, p.29.

(4) Ibid,p.37.



وقد وعد البابا الناس بالغفران؛ ليحثهم على القتال حيث إن الذين يقاتلون ستغفر لهم ذنوبهم، ويدخلون الجنة، وجمعت التبرعات والضرائب سنة ١١٨٨م، (وعرفت هذه بـ «ضريبة صلاح الدين») بينما استخدم الغفران الضرائب من جهة، فمن الجهة الأخرى سعى الصليبيون إلى عقد تحالفات مع أعداء المسلمين، وكان هؤلاء الأعداء في ذلك الوقت هم المغول الذين سبق ذكرهم، وعندما دعا البابا جريجوري العاشر للمجمع الثاني في ليون لم يحضره النصارى فقط، بل حضره أيضًا ممثلون عن المغول) [١]. لقد كانت كراهية البابوات للمسلمين عظيمة لدرجة أنهم عدوا التعاون مع الوثنيين أفضل من التعاون مع الموحدين المسلمين، ولم يكن مفاجئًا أن المغول قتلوا المسلمين، وتركوا النصارى.

وفي أثناء الحملة الصليبية الرابعة قام النصارى بمذابح ضد أبناء دينهم حيث كانت هذه المذابح في القسطنطينية سنة ١٢٠٣م، وسنة ١٢٠٤م، وسلبت المدينة وسكانها، ونهب سكانها، واستبيحت ثرواتها، استنكر البابا أنوسنت الثالث (Innocent III) هذا العمل ودعا إلى حملة صليبية جديدة سنة ١٢١٥م، وتم إعداد الحملة الخامسة التي هاجمت مدينة دمياط في مصر سنة ١٢١٨م، وكانت نهاية هذه الحملة الإخفاق التام، ودعا البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٤٥م لحملة صليبية جديدة، وكلف ملك فرنسا لويس التاسع لقيادتها، وهزمهم المسلمون، وأخذ الملك سجينًا، ولكنه أطلق سراحه فيما بعد، ومني الغرب بهزيمة مذلة، وفي الوقت الذي كان التهديد المغولي قد تغلغل من بغداد إلى دمشق، وشنوا هجومًا على مصر، ولكن سلطانًا تركيًا جديدًا قد ظهر في مصر هو السلطان بيبرس، وهزم المغول في فلسطين، واستعاد المسلمون أنطاكيا سنة ١٢٦٨م، وأماكن أخرى مختلفة سنة ١٢٩١م، وكانت مدينة أكرا أيضًا في أيدي المسلمين، ولم تنس مذبحة ريتشارد للمسلمين في أكرا أبدًا، وبعد قرن من الزمان، وفي سنة ١٢٩١م عندما سقطت قبضة الصليبيين القوية عن المدينة قتل ألفا نصراني [٢].

(1) R.C.Finucane, Op.cit., p.47.
(2) Ibid,p.99.

وفي هـذه الأثناء ظهـر الأتراك حاملين لواء الإسلام وبحـل الخميدس[1] أسس أرطغـرك مملكتـه في المنطقة الشماليـة الغربية من الأناضـول، وخلفه ابنه عثمان سنـة ١٢٨٠م، ووسع مملكـة والده، وعرفت هذه السلالة فيما بعـد باسمه، وواصل أبناء عثمان أورخان (١٣٢٤م-١٣٥٩م)، ومراد الأول (١٣٦٠م-١٣٨٩م) جهادهم ضـد الفرنجـة حتى وصلوا بـلاد البلقان مما جعـل نصارى البلقـان يشنون حملة صليبيـة ضد الأراضي الإسلاميـة بمساعدة من المجر وبولنـدا، ولكنهم هزموا في معركـة كوسونا سنـة ١٣٨٩م، ووسـع بايزيـد الأول (١٣٨٩م-١٤٠٢م) مملكته في البلقـان، وعـزل الإمبراطـور البيزنطي في مدينـة القسطنطينيـة، وحشدت حملة صليبيـة لإخراج الأتراك، ولكن الصليبيين هزموا في نيكوبولس (Nicopolis) سنة ١٣٩٦م، وذبح الأتراك تحت قيادة بايزيد ٣٠٠٠ سجين نصراني فيها.

وعانـى الحكم العثمـاني من نكسـة عندما استطـاع القائد المغـولي تيمورلنك (١٣٧٠م-١٤٠٥م) القادم من سمرقند أن يدخل، ويهزم قوات بايزيد في أنقرة سنة ١٤٠٢م، وعـاد تيمورلنك إلى سمرقند، ومـات فيها عام ١٤٠٥م، وبعد عدة سنوات تولى الحكم أحد أبناء بايزيد، وهو محمد الأول (١٤٠٣م-١٤٢١م)، وأعاد سيطرته علـى البلقـان، ودخل في معارك مـع النمسا، والمجـر، والصرب، واليشـا (رومانيا حاليًـا)، ومرة أخرى حشدت أوربـا حملة صليبية بقيادة ملـك بولندا لاديسلاوس (Ladislaus) القائد المجري جون هونادي، وهزما الجيوش العثمانية، وتم التوصل إلى صلـح مدته عشر سنوات، وفي سنة ١٤٤٤م تنـازل الأتراك عن سيطرتهم على بـلاد الصرب ولاشيا (رومانيا حاليا)، ولكن البابا ألّح على القائد هونادي، وأقنعه بأن المعاهـدة مع «الكفار» غير ملزمة، وانتهك الصليبيـون الصلح بإعلان الحرب على العثمانيين، ولكن العثمانيين هزموهم هذه المرة في معركة فارنا.

وبعـد أن تولى الخليفة محمد الثاني السلطة (١٤٥١م - ١٤٨١م) أعلن الهجوم ضـد الأوروبيـين، وكان فتـح القسطنطينيـة أبـرز أعمالـه حيث قتـل الإمبراطور

---

(1) ??????? ...

البيزنطي، وغيَّر اسم المدينة لتصبح استنبول، وجعلها عاصمة الدولة، وفي سنة ١٤٥٩م دعا البابا بيوس الثاني لحرب صليبية لإنقاذها، ولكن لم تلق دعوته سوى حماسة قليلة. لقد انتهت أيام دعوات البابوات إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين في الشرق الأوسط، ولكن محاكم التفتيش ضد المسلمين في أسبانيا قد بدأت حيث إن (الإمبراطورية) العربية هنا قد وصلت إلى نهايتها.

لقد بدأت حملة الملوك الكاثوليك في أسبانيا لاستعادتها من العرب، فعندما استعاد جيمس الأول مدينة مورسيا سنة ١٢٥٦م بعث إليه البابا التهنئة، ونصحه بأنه «من الضروري القضاء النهائي على كل السراسنة»[1]، وطبقت هذه السياسة عندما تولى الحكم الملكة أسابيلا، والملك فردناندو (١٤٧٩م-١٥١٦م)، وفي الوقت الذي كانت تسقط فيه المدن الإسلامية قرطبة، والقصر، وفالنسيا، وأشبيلية، وغرناطة في أيدي النصارى طبقت سياسة التنصير الواسعة بعنف على جميع المسلمين، وقد استخدم القساوسة أمثال سيسنيروس (Cisneros) أسقف طليطلة الإجبار؛ حيث خيَّر مسلمو القصر سنة ١٥٠٢م بين تعميد أنفسهم أو النفي، وأطلق على هؤلاء الذين قبلوا التحول إلى النصرانية موريسكوس (تصغير مورس)، وحتى بعد تنصيرهم عانوا من التفرقة، وكانوا يحضرون أمام محاكم التفتيش؛ لأنهم لا يأكلون الخنزير، وصدرت المراسم العديدة تمنعهم من ختان أبنائهم، ومن الحديث بالعربية، ومن ارتداء الملابس العربية، أو التعاويذ، أو ذبح حيواناتهم على الطريقة الإسلامية[2]، وخلال عهد فيليب الثاني (١٥٥٥م-١٥٩٨م)، وخلفه فيليب الثالث (١٥٩٨م-١٦٢١م) عد المورسيكيون خطرًا على كل من الكنيسة والدولة، وحامت حولهم الشكوك بأن يكونوا طابورًا خامسًا حيث كانت قوة العثمانيين تتنامى في ذلك الحين، وكذلك ظهرت الحركة اللوثرية في ألمانيا، وقد عد اللوثريون هراطقة في الدولة الكاثوليكية، ونظر إلى المورسيكيين كمتعاونين مع أي قوة يمكن أن تعيد إليهم حقوقهم ومجدهم الماضي، وأصبح الموقف من الإسلام أكثر عداء في الوقت الذي

(1) Anwar Cheine, Islam and the West: The Moriscos. Albany, N.Y.: State University of New York Press, 1983, p.4.

(2) Ibid,p.11.

كان فيه القرن السابع عشر يوشك أن ينتهي، وقد شجع هذا الغرب أن يقوم بغارات في البلاد الإسلامية، ولكن التعصب التاريخي ضد الإسلام لم ينس أبدًا، ومن الأمثلة على ذلك أن آلافًا من الصربيين عادوا إلى أرض معركة كوسوفو (Koso-vo)؛ ليتذكروا أعظم معركة جرت على أرض أوروبية بين النصرانية والإسلام في ٢٨ يوليو سنة ١٣٨٩م[1]، وبالرغم من أن كوسوفو قد استعيدت من الأتراك سنة ١٩١٢م، وأصبحت تحت الحكم الشيوعي فيما بعد إلا أن العداء للإسلام لم يتوقف، ووصل اضطهاد المسلمين في بلغاريا قمته سنة ١٩٨٤م عندما أجبروا على تغيير أسمائهم الإسلامية، والتخلي عن ثقافتهم، وتصاعد الاضطهاد منذ ذلك الحين، وفي سنة ١٩٨٩م طرد الألوف منهم إلى تركيا[2].

استنتاج:

لوثت هذه الحروب التي جرت بين المسلمين والنصارى، والتي عرفت بالحروب الصليبية تاريخ القرون الوسطى، وقد قوّت هذه المشكلة الأساسية في الكراهية، وعدم الثقة بين المسلمين والنصارى، فعلى مستوى المؤسسات قامت الكنائس بإيصال هذه المشكلة إلى كل البيوت في الغرب على أنها علامة بارزة بين تاريخي الحضارتين ولا يمكن محوها، وحيث إن التاريخ شاهد، فإن كل جيل يقرؤه، ويكوّن مفاهيمه وآراءه، ولأن الغرب كان هو الخاسر في هذه المواجهات العنيفة، فإن تلك المفاهيم، والآراء تصور الإسلام دائمًا على أنه شيء سلبي ومخيف.

(1) See R.West, «Crusade and Jihad Collide in Serbia»in the Independent, 24 June 1989.

(2) For the history of Bulgarian Muslims see B. Simsir, The Turks of Bulgaria, Turkish Review, (Ankara: Turkey), Spring, 1989, pp.5-36.





الفصل الثاني

الرحالة والتجسس

من المعلـوم أن عددًا كبيرًا مـن الرحّالة كانوا يجوبون أرجـاء العالم الإسلامي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبالرغم من عدم وجود صناعة سياحية في ذلـك الوقـت؛ لتشجيع مثل هـذه الرحلات مثل توفر وسائـل مواصلات متطورة لجعـل هذه الرحلات متعة لهؤلاء الرحالة، وعلى الرغـم من تعرض هؤلاء الرحالة لمخاطـر كبيرة إلا أنهم كانوا يمضـون في رحلاتهم، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: مـا الذي جعل هؤلاء الرحالة الأوروبيـين مستعدين لمواجهة المخاطر المتعددة؟ وثمة احتمالات عديدة: فلعل بعضهم قد أراد أن يهرب من ثقافة بلاده، بينما سعى البعض الآخـر وراء متعة الاكتشاف، وأراد البعض الآخر أن يحقق شهرة لنفسه، بينما أراد آخـرون أن يتبعـوا صرعة ذلك العصر بأن يكون الرجـل الرحالة، أو المرأة الرحالة مـن أجـل المتعة، وعلى الرغم مـن وجاهة هـذه الاحتمالات إلا أنهـا لا تنطبق على العديد من الرحالة الذين غالبًا ما كانوا يتخذون أسماء إسلامية، ويرتدون الملابس الإسلامية، وبذلك يضمنون لأنفسهم التجول بحرية في المجتمعات الإسلامية.

إن الدوافـع التـي حركت أولئـك الذين اتخـذوا الهيئة الإسلاميـة كانت دوافع تخريبيـة، وبالطبع لم تكـن هذه الدوافع علنيـة، فلو كانوا مغرمـين بالمسلمين حقًا لدخلـوا الإسـلام، ولكـن كتاباتهم تبرهـن على عدائهـم الحقيقي تجـاه الإسلام والشعـوب الإسلامية، فما الأسباب التي دعتهم لتكبد المشاق للرحلة في بلاد كرهوا شعوبهـا ودينها؟ في البدايـة أراد البعض أن يثبت تفـوق النصرانية على الإسلام، وفيمـا بعـد حين أصبـح العالم الغربـي أكثر قـوة أرادت حكوماتهـم، ومؤسساتهم التجاريـة الخاصـة أن تتوسـع أكثر، وقد تم ذلـك عن طريق الاستغـلال التجاري، والتجسس السياسي، وهما السببـان الرئيسيان المختفيان تحت مظاهر مزيفة. إن الدوافـع التجارية كانت مجـرد مظهر للسيطرة السياسية، وكمـا أثبت التاريخ بأن شركـة الهند الشرقية كانت ستارًا خادعًا للاستعمـار الإنجليزي والهولندي، ولكل مـن الهند وإندونيسيا، ويصدق على هذا ما ذكره أحـد المؤلفين: «أن فكرة الرحلة كوسيلة لجمع المعلومات، وتسجيلها أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية



من القوة السياسية، يبدأ الرحالة رحلته بقوة أمة أو إمبراطورية تحافظ عليه (ولو من بعيد) عسكريًا، واقتصاديًا، وفكريًا .. يشعر بأنه مجبر على تدوين ملاحظاته، وهو على وعي بجمهور معين، مواطنوه عمومًا، وزملاء المهنة، ورئيس دولته أو ملكه[1]، وستجد البرهان على هذا بذكر تاريخ موجز لبعض الرحالة الأوروبيين.

لقد أثار اكتشاف فاسكو داجاما الطريق البحري إلى الهند في القرن الخامس عشر الإنجليز، والفرنسيين، والبرتغاليين، والهولنديين، وكان ثمة تنافس كبير بين هؤلاء؛ لتوسيع تجارتهم عبر الحدود الجديدة، وتطلب هذا الاستيلاء على بلاد جديدة، ولما كانت الإمبراطوريتان الرئيسيتان (المغول والأتراك) تحت سيطرة حكام مسلمين مما أثار اهتمامًا جديدًا بالإسلام، فأسست كراس لتعليم اللغة العربية في كمبريدج (١٦٣٢م)، وأكسفورد سنة (١٦٣٦م)، وكتب بدول (Bidwell) (١٥٦١-١٦٣٢م) الذي عُدَّ أبًا للدراسات العربية بأن العربية «كانت لغة الدين الوحيد، واللغة الرئيسية للدبلوماسية، ومن الجزر السعيدة إلى الصين»[2]، ولكن أغراض النصرانية لم تهمل.

واعتقدت الجامعات أن اللغة العربية سوف تبرهن على أهميتها «لخدمة الملك، والدولة في التجارة مع الأمم الشرقية، وببركة الله ستتوسع حدود الكنيسة، والدعوة إلى دين النصارى عند تلك الشعوب التي تعيش في الظلام»[3]، ومن المستعربين الآخرين المشهورين نجد أدموند كاستل (Edmond Castel) (١٦٠٦م-١٦٨٥م) الذي أصبح أول أستاذ للغة العربية في كامبريدج، وكذلك إدوارد بوكوك (Edward Pocok) (١٦٠٤م-١٦٩١م) الذي كان منصرًا، ثم أصبح فيما بعد أستاذًا للغة العربية في أكسفورد، وبغض النظر عن هذه الاهتمامات البرجوازية في اللغة العربية، فقد بدأ عدد من الرحالة رحلاتهم إلى الشرق الأوسط، وقد نظر وليام ليثقو (William Lithgow) أحد أوائل الرحالة إلى المسلمين على أنهم كفار،

---

(1) R.Kabbani, Europe›s Myth of Orient. Jndiana University Press, 1986. p.1.
(2) A.J.Arberry. British Orientalists. London: William Collins, 1933, p.16.
(3) A.J.Arberry, The Cambridge School of Arabic. Cambridge, 1948, p.8.

وقسمهم قسمين الأتراك، والمورسيكيين المقبولين، والعرب غير المقبولين، ونظر إلى العرب على أنهم لصوص، وأن المورسيكيين متوحشون، والأتراك «أفضل المصائب، ولكنهم أعداء أكيدون للمسيح»[١].

وازداد تعامل الإنجليز مع المسلمين في القرن الثامن عشر، وكذلك اهتمامهم بهم، وظهر جيل جديد من العلماء أمثال سيمون أوكلي (Simon Oklay)، وهو تلميذ سابق للمستعرب الأكسفوردي بوكوك الذي أصبح أستاذًا للعربية في كمبردج، وكتب «تاريخ السراسنة»، وكان من أولى الكتابات لمحاولة فهم الحضارة الإسلامية العربية، كما طبع كتاب: «ألف ليلة وليلة» بالإنجليزية سنة ١٧١١م نقلًا عن ترجمة فرنسية، وقرأتها أجيال عديدة، وأعطت صورة غير حقيقية للشعوب الإسلامية بأنهم فاسقون جنسيًا، ومغامرون، ومخادعون. وكذلك قام جورج سيل (George Sale) بترجمة معاني القرآن الكريم سنة ١٧٣٤م، وبالرغم من أخطائه الكثيرة، فقد قرأته أجيال عديدة، وبحلول القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد أسست طريقًا تجاريًا، وقامت بغارات سياسية في العديد من البلاد الإسلامية، وقد سقطت (الإمبراطورية) المغولية كلها في أيدي بريطانيا سنة ١٨٥٧م، وبالرغم من أن الشرق الأوسط كان لا يزال تحت السيطرة العثمانية، وكان الإنجليز يطمعون في الاستيلاء على بعض أراضيه، فإن عددًا من الرحالة الذين زاروا المنطقة أشاروا إلى أن المنطقة ستكون جائزة سهلة للإنجليز، وأحد أوائل هؤلاء الرحالة وأكثرهم شهرة هون جون لويس بوخارت (John Lewis Bukhart) الذي مات في القاهرة سنة ١٨١٧م، وكان جون يتنقل تحت الاسم الإسلامي: الشيخ إبراهيم بن عبد الله، وقد أكد كتابه: (بدو ووهابيون) الصورة السلبية للشعوب الإسلامية، فقد عد الأتراك أكثر قوة من العرب، ولكن تعميماته الكاسحة حول مضيفيه لم تكن أفضل حيث رأى أن «العرب يمكن تصنيفهم على أنهم أمة من اللصوص مهنتهم الأساسية السلب، وهو الموضوع المسيطر على تفكيرهم»[٢].

---

(1) See: Sari J.Nasir, The Arabs and the English. London: Longman Group ltd. 1979, p.28.

(2) Ibid,pp.59-60.



لم يرفض علماء الغرب مثل هذه المقولة بل أكدوها، ومن هؤلاء إدوارد وليم لين (Edward William Lane) (١٨٠١م-١٨٧٦م) الذي أصبح كتابه: (تقرير عن أخلاق وعادات المصريين في العصر الحديث) قراءة إجبارية لكل الغربيين المسافرين والدارسين للشرق الأوسط، ولما كان لين متأثرًا بشخصيات ألف ليلة وليلة، فإنه عرَّض المصريين، والثقافة المصرية في صورة مشابهة لتلك القصص، فقد صوَّر الرجال على أنهم عابثون، وأن النساء فاسقات، وقد ترجم ألف ليلة وليلة، وأصبح معدودًا في الفترة الأخيرة من عمره على أنه خبير في الشرق الأوسط.

وكان خليفة لين، وسار على منهجه في التفكير إدوارد هنري بالمر (E.H.Palmer) (١٨٤٠م-١٨٨٢م)، وهو نفسه اتخذ الاسم الإسلامي الشيخ عبد الله، وكتب إدوارد ترجمة لهارون الرشيد، وكذلك مذكرات عن رحلته عبر جزيرة سيناء بالإضافة إلى كتاب آخر بعنوان: (صحراء سفر الخروج) (Desert of Exodus)، ولم يضف عرضه أي تحسين على صورة العرب عما كتبه لين، بل إنه في الحقيقة نظر إلى العرب على أنهم لصوص، ونشروا الخراب، والعنف، والإهمال، وأن وجودهم يجب أن توضع له نهاية، لقد كان معارضًا لصورة البدو التي ابتدعها سابقوه، وهي: أن العرب هم «المتوحشون النبلاء» في الصحراء، بل على العكس عدهم «بلاءً شديدًا»، وبينما كان يتجول كمسلم كان أيضًا يقوم بتنفيذ مهام سياسية وعسكرية بأمر رئيس الوزراء البريطاني جلادستون (Gladstone)، فقد أرسل سنة ١٨٨٢م حتى يقنع زعماء البدو بعدم تأييد عرابي باشا الذي كان يقود تمردًا ضد البريطانيين، وقد أعطي مبلغًا يتراوح بين عشرين ألفًا وثلاثين ألفًا من الجنيهات؛ ليرشي بها خمسين ألف بدوي في تلك المنطقة. «وقد استخدمت الأموال التي وفرت له ليتظاهر بشراء الجمال؛ لأنه من الطبيعي أن الحكومة البريطانية لا يمكنها أن تنزل إلى مستوى الرشوة والفساد»[1]، ويقال: إن بالمر نجح في مهمته، وأن القائد البريطاني

(1) R.L.Bidwell, «Edward Henry Palmer (1844-1882)», British Society for Middle Eastern Studies Bulletin, vol.13, No,1, 1986, p.48.

جارنت وولسلي (Garnet Wolseley) استطاع أن يهزم قوات عرابي باشا في التل الكبير، ولكنه وثلاثة آخرين قتلوا في الصحراء على أيدي البدو.

وكان ريتشارد بيرتون (١٨٢١م-١٨٩٠م) رحالة آخر من المخربين، فقد رحل عبر السند وباكستان سنة ١٨٤٤م؛ ليتجسس لصالح القائد تشارلز نابيير (Charles Napier) الذي استطاع التغلب على هذه المنطقة، وتخفى بيرتون فيما بعد تحت اسم عربي، وانطلق في مهمته إلى الشرق الأوسط حتى أنه زار مكة والمدينة، وكتب كتابه: (الحج إلى المدينة ومكة)، وكتب عن الكعبة قائلًا: «ليس ثمة قطع أثرية ضخمة كالتي في مصر، وليس ثمة آثار رائعة وجمال متناسق كما في اليونان أو إيطاليا، أو ضخامة بربرية كما في أبنية الهند، ومع ذلك فالمنظر كان غريبًا وفريدًا، وكيف نظر إليه القليل على أنه شعيرة مقدسة، يمكن أن أقول حقًا: إنه من بين كل العابدين الذين تعلقوا بأستار الكعبة، أو ألصقوا قلوبهم النابضة بالحجر، لا أحد من هؤلاء شعر في تلك اللحظة بإحساس أعمق من الحاج الذي جاء من الشمال البعيد، لقد كان المنظر كما لو كانت أسطورة شعرية عربية تتحدث الحقيقية، وأن أجنحة الملائكة المنتظرة نسيم الصباح الجميل كانت مثيرة، ومضخمة للستارة السوداء المغطية للكعبة، ولكن اعترف بحقيقة متواضعة أن إحساسهم كان حماسة دينية، بينما كان إحساسي هو نشوة الفخر الشكور»[1]. لقد حاول أن يبني صورة للمؤمن المتوحش النبيل، ولكن اهتماماته بهؤلاء الناس كانت واضحة، ولقد نصح الحكومة البريطانية بأن تحتل الشرق الأوسط، وإذا اضطرتهم الضرورة السياسية أن يحتلوا مكة والمدينة، وقد نصح البريطانيين أيضًا بأن العرب يمكن أن «يقادوا» بسهولة إذا عرف الإنسان كيف يستغل نقاط ضعفهم، وقد لاحظ بيرتون أن الحكومة البريطانية لو رأت «من الضروري إنشاء أفواج من هؤلاء الناس، فقد لا يكون ثمة ما هو أسهل من ذلك: ادفع رواتبهم بانتظام، سلحهم تسليحًا جيدًا؛ ليعملوا عملًا شاقًا، وعاملهم بعدل ومساواة، وليس ثمة شيء آخر لتفعله، وسيكونون

(1) Quoted in K.Tridick, Heart Beguiling, Araby. Cambridge: Cambridge University press, 1981, p.71.



جاهزيـن لأعمال مشاة خفيفة»[1]، وبينمـا كانت هذه خدمة قدمها بيرتون لوطنه، فقد كان مهتمًا بالحياة الجنسية للشعوب التي زارها رجالًا ونساءً، لقد كان مفهومه للأنثـى على أنهـا ممتلكات جنسية، وكانـت ترجماته المثيرة جنسيًـا تطبع بصورة خاصـة وتوزع – على المشتركين – للرجال الراغبين في معرفة واسعة في الإثارة[2]، إن الصورة التي برزت عن الناس الذين استضافوه كانت بلا شك صورة مشوهة.

وكان وليـم بلنت (Blunt) (١٨٤٠م-١٩٢٢م) علـى النقيض نسبيًا من بيرتون حيـث كان معتدلًا في نقده للعرب، ولم يكن هذا؛ لأنه كان متعاطفًا معهم، ولكن لأنه أراد أن يكسبهـم حتـى يمكن أن يثوروا ضد الأتراك، وقـد جعلت كتابته: «مستقبل الإسلام» بعضـ الاستعماريين مـن أمثال اللورد كرومر يعدون بلنـت مهتمًا بنهضة الإسـلام، وما كان هـذا صحيحًا؛ لأن بلنت كان مهتمًا بتدمير الرابطة الدينية التي وحّـدت الأتـراك مع العرب مـن الداخل، فقد كانـت نظرته للمصريـين على أنهم مطيعـون لدرجـة أنهم يمكـن أن يهتفوا لملكة بريطانيـا، أو للبابـا، أو الملك أشانتي بنفس الحماسة لو كان هؤلاء خفضوا الضرائب بمقدار فلس واحد»[3]، وهكذا كان بلنـت يبذر بذور الدمار في (الإمبراطورية) العثمانية، لقد أقنع العرب أن الخلافة الإسلاميـة من حقهم فعليهم تحريـر أنفسهم من النير التركي ومن أجل هذا جعل البدوي مساويًـا لـ«رجل الصحراء المحترم»[4]، لقد كانت كتاباته مليئة بمديحهم، وحتـى ناقدة لمواطنيـه، وللسياسات البريطانية، ولكنه لم يكـن غافلًا عن المصالح البريطانيـة، وكان راغبًا في تحرير العرب من الحكم العثماني، وعلى خطاه جاءت، أي لورنـس (لورنس العرب) يطبق أفكاره حيث حارب القوات التركية طاردًا إياهم مـن بلاد العرب؛ ليضع في سـدة الحكم بعد الحرب العالميـة الأولى العرب الموالين للغرب.

---

(1) Ibid,p.75.
(2) Kabaani, Op,cit, p.55.
(3) Sari J.Nasir, Ibid., Op.cit., p.79.
(4) R.Kabbani, Ibid., Op.cit., p.97.

أمـا شارلز داوتي (Charles Doughty) (١٨٤٣م-١٩٢٦م)، فقد اتخذ الاسم الإسلامـي خليل؛ لأنـه كان قريبًا من جرس اسمه الأول، لقـد ارتحل كثيرًا في بلاد العـرب، وألّف كتابًا بعنوان: (رحلات في الصحراء العربية)، وقد عُدَّ كتابه مرجعًا معتمـدًا من قبل المختصين بالعرب أمثـال ت. أي. لورنس. وبمقارنة أعمال بيرتون وبلنت وداوتي، فقد كتب أحد المراقبين عن ذلك، قائلاً: «إن عمل داوتي كان بسيطًا وقاسيًـا جـدًّا»[1]، وقد سار داوتي على نهج سالفيـه في التفكير حيث صنَّف العرب ضمـن الشعوب المتخلفـة، وأن «فم العرب كما هو ملـيء بالشتائم كذلك صلواتهم وقلوبهـم .. مخادعة، ومزدرية، وقاسية، وسمعتهم فاضحة»[2]، وما كانت آراؤه في الإسـلام بأفضـل من ذلـك بكثير حيث كتب يقـول: «إن دين السيـف العربي يجب إخضاعه بالسيف»، وقد عد النصرانية متفوقة على الإسلام، فالإسلام «هو الوجه المفـزع لدينهـم»[3]، وعندما قابـل رحالة إيطاليًّـا متعاطفًا مع الإسـلام استشاط داوتي غضبًا، وكتب أنه لم يترك انطباعًا لديه، فكيف يمكن لإيطالي ولد في الدولة الرومانية ويحمـل اسم المسيح أن يصبح أخًا للبرابـرة الآسيويين؟»[4]، ومعلوم أن داوتـي كاد أن يفقـد حياته على أيدي العرب الذين عـدُّوه كافرًا لو لم يتدخل رحَّالة مسلـم لإنقـاذه[5]، كان داوتي يريد مـن بريطانيا أن تستولي علـى مكة، وأن تحمي النصـارى في البـلاد العربية، وكان مؤيـدًا وطنيًا للسياسيـة الإمبريالية في الشرق الأوسـط، وكان يشعـر بالنشوة والفخـر حينما كان يخبر العرب بـأن طعامهم كان «رز الإنجليز ومعبأ في أكياس الإنجليز، وعليه علامات بكلمات إنجليزية، وتكسون جيـدًا؛ لأن القطن على ظهوركم قد نسج وغزل في معامل الإنجليز، أنتم لا تقدرون إن الذي يغذيكم جزئيًا هم الإنجليز، وهم الذين يكسونكم»[6].

(1) Thomas J.Assad, Three Victorian Travellers. London: Routledge and Kegan Paul, 1964, p.x.
(2) Sari J.Nasir, Op.cit., p.142.
(3) K.Tidrick, Op.cit., p.142.
(4) R.Kabbani, Op.cit.p.106.
(5) K.Tidrick, Op.cit., p.145.
(6) Ibid,p.156.



وثمة رحّالة آخر هو: جيفورد بالجريف (Gifford Palgrave) (١٨٢٦م-١٨٨٨م) الذي بالرغم من مظهره النصراني المتميز إلا أنه دافع عن المصالح الإمبريالية الفرنسية في عهد نابليون الثالث، ويذكر عنه أنّه ارتدى الزي المحلي السوري، وظهر بصفة طبيب سوري نصراني متخذًا الاسم سالين أبو محمود الآيس (الساكت)، واضطر للهروب من سوريا حينما قامت الحرب الأهلية بين الدروز والمارونيين سنة ١٨٦٠م، وعندما بعثت فرنسا قوة عاجلة؛ لإعادة النظام قدّم بالجريف تقارير لنابليون، كما زار بالجريف مصر، وأعد تقارير تجسسية قدم فيها «خطة مفصلة لغزو فرنسي لكل من سوريا ومصر، ولتكون السيطرة لفرنسا على كلا البلدين»(١)، وعندما في الرياض شك فيه ابن أمير نجد حينذاك، فأخبره بأنه ليس طبيبًا، وأن «الجواسيس والنصارى والثوريين .. يأتون إلى بلادنا؛ ليفسدوا ديننا ودولتنا لصالح أولئك الذين أرسلوهم»(٢)، وعمل لمصلحة الإنجليز فيما بعد لإطلاق صراح من اعتقلوا في الحبشة، وكان يسخر من الإسلام والعرب، ونظر إلى البدو على أنهم «فرع منحط من شجرة العرب»(٣).

ركز الغرب على كل من الأتراك والعرب، لكنهم لم يهملوا الإيرانيين، فبالإضافة إلى الروس كان للبريطانيين نفوذ ضخم على النخبة الحاكمة في إيران، فقد ضمّن روبرت بورتر (Robert Porter) تصويرًا كابيًا لإيران في كتابه: (رحلات سنة ١٨٢٠م؛ حيث رسم صورة مثيرة للمجتمعات الإسلامية تمشيًا مع التوقعات الغربية، ولكن كتابه لم يكن مؤثرًا ككتاب جيمس موريير (James Morier) (حجي بابا الأصفهاني)، فقد كان مؤلف هذا الكتاب يعمل في السلك الدبلوماسي في طهران لعدد من السنين، ونشر كتابه سنة ١٨٢٤م، وقد عدّه مؤلفه «النتاج الناضج لتجربته الإيرانية وآرائه»(٤). أما الشخصية الرئيسية في كتابه: «حجي بابا»، فقد

(1) Ibid,p.90.
(2) Ibid,p.92.
(3) Ibid,p.97.
(4) Sarah Searight, The British in the Middle East, London: East West. Publication, 1979, p.258.

كان ابن حلاق اعتاد أن يعرّي إيران من سحرها، ويظهر شخصيته الخبيثة بخداع زبائنــه، وقــد تناول موريــر معظم جوانب الحيــاة في إيران في القــرن التاسع عشر تقريبًا، وبأسلوب روائي ساخر عارضًا كل الشخصيات التي قابلها، وكانت نشطة في الصراع الروسي الإنجليــزي، كان عمله تشويهًا للصورة الإيرانية، وإضافة جديدة للصورة السيئة التي وضع فيها الغربيون العرب والأتراك، وعندما نشر الكتاب بعث السفــير الإيراني في لنــدن ميرزا أبو الحســن إلى موريير قائــلًا: «الشعب الإيراني سيئ جدًا، ولكنهم كانوا طيبين معك، فلماذا تسيء إليهم؟»[1]، وكثيرون هم الذين قــرؤوا الكتاب، ومن هؤلاء كيرزون (Curzon) الــذي قال عن شخصية حجي بابا: إنه كان «نموذجًا ليس فقط للحياة والمحيط، ولكن لشخصية مواطنيه، وغرائزهم، وطرائق تفكيرهم»[2].

ومن هؤلاء الرحالة أيضًا هنري لاياردز (H.Layards) الذي جاء إلى إيران في منتصــف القرن التاسع عشر لإجراء حفريات أثرية في نينوى ونمرود، ونشر كتابه: (مغامرات مبكرة) سنة ١٨٨٧م، لقد عاش بين ظهراني البختياريين الذين وجدهم مغرمــين بالحروب، وممــا هو أكثر أهمية من كتاب لايلارد مــا كتبه جورج كيرزون الــذي دونت رحلاتــه الواسعة في كتابه: (فارس والمسألــة الفارسية)، وكان الهدف مــن رحلة كيرزون إلى بلاد فارس سنة ١٨٩٩م هــو استكشاف المشكلات السياسية في تلــك الدولة التــي كان من الممكن أن تقف عقبة في طريــق التوسع البريطاني في إيران، وفي منطقة الخليج الفارسي، وكذلك النظرة في إمكانية وجود هجوم مضاد مــن قبــل الروس، وكان كتاب كــيرزون أكثر أهمية لأسباب سياســيــة، ولكنه لم يكن متعاطفًــا مع موضــوع بحثه، وأفضــل تلخيص لهــذا الكتاب ما جــاء في مقال أحد الكُتّــاب الذين قدموا عرضًا له: «يبــدو أن السيد كيرزون واقع تحت تأثير الانطباع بأنّه مكتشف بلاد فارســ، ولأنه المكتشف فإنه الآن، وبطريقة غامضة يمتلكها»[3]، ومــع ذلك فقــد كان كيرزون خادمــا مخلصًا للإمبريالية البريطانيــة، وكان لآرائه

(1) Ibid,p.259.
(2) Ibid,p.258.
(3) Ibid,p.190.



قيمة عند الحكومة البريطانية، ولما كان التوسع الاستعماري آخذًا في الازدياد، فقد ظهر جيل من الاستعماريين الذين يعدون أنفسهم متفوقين على شعوب الأمم غير الغربية، واعتقدوا أن مهمتهم مهمة تحضيرية، ولم يكن لديهم حتى الرغبة في فهم وجهات نظر الشعوب المستعمرة، ولكن فضلوا إشغال أنفسهم بمخططات فرض الثقافة الغربية، وقيمها على الأنظمة الاجتماعية، والسياسية للبلاد غير الغربية.

وثمة رحَّالة آخر قام بدراسة شاملة لإيران في الجزء الأول من هذا القرن هو: إدوارد جرانفيل براون (E.Granville Browne)، وكان كتابه: (سَنَة بين الفرس) أكثر من مجرد وصف لرحلة حيث تضمن مقدمة تامة حول ثقافة إيران وشعبها، وكان كتابه بالنسبة للإنجليز دليلًا لإيران على درجة

من الأهمية تساوي ما كتبه غيره من الكُتَّاب حول بلاد العرب، وفي الحقيقة، ووفقًا لأحد المعلقين «لم يكتشف كاتب آخر في هذه الفترة روح الشعب، أو تشبّع بها إلى الدرجة نفسها التي وصل إليها براون»[(1)]، ومع ذلك فإن روح الشعب الإيراني تكمن في الإسلام، وكان هذا صحيحًا بصفة خاصة؛ لأنه في النصف الثاني من القرن العشرين كانت معظم الحركات تسعى إلى رعاية أحوال الجماهير الفقيرة في هذه البلاد، وصدرت عن المجتهدين الإيرانيين في النجف وفي قم، وفي الحقيقة جاء أقوى معارضة للقاجر من المجتهدين، وهو تقليد احتفظ به، وبقوة سلسلة من الخلفاء من آية الله شيرازي من النجف (العراق) إلى آية الله الخميني من قم[(٢)].

لقد فشل براون في إدراك قوة الإسلام؛ لأنه لم يجدها، ولكن لأنه لم يرغب في الاعتراف بها، ولم يكن من الممكن عدم إدراكها؛ لأنه في الوقت الذي كان فيه في إيران الثورة الدستورية على أشدها، ومع ذلك فكما أن القوى الاستعمارية كانت تتطلع إلى تأييد الحركات الدينية المزيفة المعادية للإسلام، كما فعل البريطانيون مع القاديانيين في الهند، فقد وجد براون الشيء نفسه في البهائيين في إيران، لقد كان متأثرًا جدًا بهم بعد أن قابلهم في كرمان، وكتب عن ذلك قائلًا: «لقد نفذ

---

(1) Ibid,p.190.

(٢) في هذه الملاحظة إغفال لدور السُّنَّة في إيران الذين لا شك لهم وجود مهم في إيران. (المترجم).

إلى كيـاني كلّه إشعاع الجمال الهادئ، وذكريات تلك الاجتماعات مع البهائيين، ولا يمكـن أن يخبو من ذاكرتـي تلك المجموعات من الوجوه، وتلـك النغمات، ولا يمكن للوقـت أن يمحوها، لقـد تفرست برهبة في عمل تلك الروح القوية، وأعجب إلى أين تميل»[1].

وفي الحقيقـة أنـه رحل للالتقاء ببهاء الله زعيم البهائيـين الذي استقر في عكا بفلسطـين سنـة ١٨٩٠م، لقد احتلـت كتابات براون مكانة عالية لـدى حكام القجر المنحلين حتى إنه لما مات سنة ١٩٢٦م أعلنوا ذلك اليوم حدادًا عامًا في إيران.

إن كل الرحّالـة الذيـن اخترناهم هنا سـواءً أكانوا إنجليز أم غـير ذلك كانوا عنصريـين وإمبرياليين، عمل كل واحد منهم لخدمـة المصالح الإمبريالية لبلاده، وظهـر إمـا كمسلـم، أو عربـي نصـراني، واستفـاد من الشعـب الذي أبـدى كرم الضيافة، ووثقوا فيهـم، ولكن ظهر اتجاهان في كتابات هؤلاء الرحّالة بغض النظر عن الأهداف السياسية:

الأول: «الإصرار على الادعاء بأن الشرق هو مكان الفجور الداعر.

والثاني: أنه عالم يتصـف بالعنف الموروث، وهذه الموضوعات كانت لها أهميتها في فكـر العصـور الوسطى، فلـو كان من الممكـن الافتراض بأن الشعـوب الشرقية كانـت خاملة، ومشغولة بالجنـس، وعنيفة، وغير قادرة على حكـم نفسها، فعندئذ سـوف يشعر الإمبريـالي أنه محق في التدخـل والحكم»[2]، وبهـذا التبرير اقتحم الاستعماريون البلاد للسيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادي، وقد قدمت حقبة الرحّالـة معلومـات تجسسيـة كافية حول الأوضـاع في الشرق الأوسـط. أما الجيل الجديـد من الرحالة فقـد كانوا ضباطًـا في الاستخبارات العسكريـة من مثل جي إي ليثمـان (G.E.Lezchman)، وتي. أي. لورانـس.، وهـ. سيت فيلبي، وجي. بي. جلـوب الذين تخصصوا أيضًا في الشرق الأوسـط فقد كان ليثمان يجمع المعلومات المخابراتية في العـراق، وكان لورانس يعمل مع الشريف حسين شريف مكة، وأصبح

(1) Quoted in Ibid,p.191.

(2) R.Kabbani, op.cit., p.6.



فيلبي صديق ابن سعود، وكان جلوب يعمل في إيران والأردن، وقد كتب بعض هؤلاء كتبًا تصف رحلاتهم؛ لتؤكد فقط الصور التي ابتدعها رحالة القرن التاسع عشر، ولكن الشرق الأوسط قد أعدَّ كذلك للسيطرة السياسية، والاستغلال الاقتصادي.

الاستنتاج:

إن معظم هؤلاء الرحّالة قد جمعوا معلومات مخابراتية مباشرة أو غير مباشرة لصالح دولهم، وكانت مثل هذه النشاطات سرية، ولم يعترف بها علنًا أبدًا، وبالرغم من أنَّ السفارات الدبلوماسية قد وجدت في بعض البلاد الإسلامية، لكن الرحالة المتنكرين بالملابس والأسماء الإسلامية تمكنوا من الوصول إلى الجذور، وقد استبدلت الدول الغربية هؤلاء في العصر الحاضر بوكالات المخابرات مثل وكالة المخابرات المركزية (C.I.A)؛ حيث تغلغل عملاؤها في الدول الإسلامية بالتظاهر بالعمل كصحافيين أو رجال أعمال... إلخ، لقد أصبحت صناعة جمع المعلومات المخابراتية أكثر تعقيدًا من خلال الثقافة الحديثة التي يستخدمها الغرب ضد الدول الإسلامية؛ لأنها مناطق ذات مصالح رئيسية للدول الغربية.



الفصل الثالث

الإستعمار والمستشرقون

أخضع الاستعمار الغربي شعوبًا من مناطق مختلفة من الكرة الأرضية لحكمه، وكان يعتري الاستعمار خوف واحد هو الإسلام، وبالتالي فقد كان ثمة جدل واسع خلال الحقبة الاستعمارية حول كيفية احتواء الإسلام، فبدون احتوائهم للإسلام، فإن احتلال البلاد الإسلامية سيكون دائمًا تهديدًا للغرب، فقد أدرك سنوك هورخرونيه (Snouck Hurgronje) الخطر الحقيقي الذي تمثله الخلافة العثمانية، فحذّر القوى الاستعمارية من خطورة معتقدات المسلمين السياسية والدينية في ميدان العلاقات الدولية[١]، فلو قبلت القوى الاستعمارية الإسلام مبدئيًا، فإن ذلك سيكون له مضامين سلبية؛ لأن الشعوب الإسلامية ستقبل حكامها المحليين على أنهم «أمر شاذ»[٢]، وقد أكد أن مبدأ الجامعة الإسلامية خطر على الاستعمار، واعتقد هورخرونيه أنه بالرغم من أن الخلافة الإسلامية لم تكن دينية تمامًا إلا أن القوة الدينية ما تزال في أيدي العلماء[٣]، وما تزال المشكلة باقية: كيف يجب احتواء الإسلام؟

قدم البارون كارا دوفو (Cara de Voux) أحد الحلول للحكومة الفرنسية ذلك أنه كان دارسًا متخصصًا في ابن سينا، وعضوًا في المعهد الكاثوليكي الفرنسي، ومما جاء فيه: «إننا يجب أن نقسم العالم الإسلامي، نحطم وحدته المعنوية مستخدمين في هذا الانقسامات العرقية والسياسية .. ولذلك فعلينا أن نؤكد هذه الخلافات من أجل أن نزيد من جهة الشعور القومي، ومن جهة أخرى نضعف الجماعة الدينية لدى الأجناس الإسلامية المتعددة، وبعبارة مختصرة: دعنا نقطع الإسلام[٤]، وكان العمل المهم هو «إضعاف الإسلام .. لجعله غير قادر إلى الأبد

(1) Marwan R. Buheiry, Colonial Scholarship in Muslim Revivalism in 1900. Arab Studies Quarterly, vol. 4, Nos. i-2, 1982, p.7.

(2) Ibid,p.7.

(3) Ibid,p.7.

(4) Ibid,p.5.

على النهضة»[1]، ويعرف هذا المبدأ عمومًا بـ«فرّق تسد»، وقد استخدمته جميع القوى الاستعمارية، وما تزال تستخدمه إلى هذا اليوم في البلاد الإسلامية؛ حيث تم تقسيم الخلافة العثمانية، والبلاد الإسلامية إلى دول قومية، ولكن الخطر مازال ماثلًا في الإسلام، والذي كان باستطاعته تجاوز الحدود القومية – فهو مستمر في إزعاج القوى الاستعمارية–، وقد أدى هذا الخوف لدى الاستعماريين إلى تشجيع دراسة الإسلام دراسة جادة، فالإسلام يحتاج إلى إعادة تفسير، فلو قبل المسلمون تفسيرات جديدة للإسلام، فإن موقفهم لن يعكس بالتالي الروح الحقيقية للإسلام والقوة الإسلامية، وقد لخص ذلك الكاتب الجزائري من وهران محمد بن رحال تلخيصًا صحيحًا حين قال: «إن العداوة هي الملاحظة المسيطرة في إحساس الغرب تجاه الإسلام .. فلو دافع المسلم عن بيته، ودينه، وأمته، فإنه لا ينظر إليهم على أنه وطني، بل متوحش، وإذا ما أظهر الشجاعة والبطولة، فيقال عنه: متعصب، وإذا هُزم وأظهر الاستسلام، فيقال عنه: جبري .. (إن الإسلام) محكوم عليه دون محاكمة، وتشوّه سمعته بانتظام، ويُسخر منه دون معرفته»[2]، وشجع الاستعماريون هذا الفرع المعرفي الجديد، وواجه المستشرقون التحدي لاحتواء الإسلام.

بدأت دراسة الغرب لعالم الشرق في وقت مبكر يعود إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، وكانت هذه الدراسات ترى الشرق مثيرًا وغامضًا، وقد قام أمثال إبراهام هايسنثر انكويتل دوبيرون (Abraham-Hyacinthe Anauetil Dupper-ron)، وسير وليام جونز بترجمة نصوص الأفستا عن الديانة الزرادشتية، وترجمة الأوبانشدة عن الهندوسية، وأسسوا الجمعية الآسيوية البنغالية سنة ١٨٤٧م، أما ما يطلق عليه الاستشراق العلمي فقد بدأ عندما افتتح سيلفستر دو ساسي (Silvester de Sacy) «مدرسة اللغات الشرقية الحية» في باريس سنة ١٧٩٥م[3]، وكان مدهشًا أن نابليون خلال غزوه لمصر اصطحب معه عددًا من العلماء الذين

(1) Ibid,p.5.
(2) Ibid,p.14.
(3) C.E, Bosworth, Orientalism and Orientalists in Grinwood. Arab Islamic Bibliography. Sussex: Harvester press, 1977, p.148.

كتبوا ثلاثًا وعشرين مجلدًا عن المصريات (عهد الفراعنة)، والتي كانت مصممة «لإعادة المنطقة من وضعها المتوحش الحالي إلى عظمتها القديمة؛ لتعليم الشرق (لمصلحته) بطرق الغرب ولإخضاع، أو إضعاف القوة العسكرية من أجل تعظيم مشروع المعرفة المجيد الذي تحقق بالسيطرة السياسية على الشرق، ولتشكيل الشرق، وإعطائه هيئة وصورة وتعريفًا مع الاعتراف التام بمكانته في الذاكرة، وأهميته للخطة الإمبريالية، ولدوره كتابع ذليل لأوربا ..»[1]، وقد أدى هذا الاهتمام المبكر إلى إصدار عدد من الترجمات والمعاجم، والكتب السياحية... الخ، وكلها متخصصة؛ لتشرح الشرق، ولجعل دراسته أيسر من خلال معرفة لغاته وآدابه.

وبحلول القرن التاسع عشر تم تجديد هذه الأساليب الفوضوية، والاستقلالية بمناهج أكثر نشاطًا، وقوة تمشيًا مع الوعي العلمي؛ لذلك الزمن حيث تم الاتفاق الجماعي على تطوير الطريقة التي تتم بها دراسة الشرق عند علماء المشرقيات، وبدأ الاستشراق يحقق الاعتراف به كفرع معرفي مستقل، ويجب أن نتذكر أنه في البيئة التي ولد فيها الاستشراق كان ثمة حاجة له، وقد ولّد هذه الحاجة التوسع في الاحتلال، والمصالح الاستعمارية، فقد أقيمت مستعمرات جديدة، وواجه المستعمرون ثقافات جديدة، وأديان وأفكار جديدة، وكل ذلك كان غريبًا بالنسبة لهم، ومن أجل السيطرة على هذه الشعوب غير الغربية كانت الحاجة ماسة إلى زيادة المعرفة بثقافاتهم وأديانهم، وقد لبى الاستشراق العلماني هذه الاحتياجات، وفتحت جبهة جديدة ضد الإسلام شارك فيها علماء من النصارى ومن اليهود، وأصبحت آراء المستشرقين منذ ذلك الحين، «جزءًا أساسيًا في الثقافة الغربية»[2]، وقد جعلت كتابات أمثال سيلفستر دو ساسي، وأرنست رينان، وإدوارد وليام لين من «الاستشراق مؤثرًا ومنسجمًا مع المصالح والاهتمامات السياسية للحكام الإمبرياليين»[3]، ويقدم إدوارد سعيد أنسب تعريف للاستشراق بقوله عن عمل

(1) E.W.Said, Orientalism, London: and Routjedge and Kegan Paul, 1980, p.86.

(2) Stuart Schaar, «Orientalism at the Service of Imperialism»in Race and Class, Vol XXI, No. 1, 1979, p.68.

(3) Ibid,p.69.



الاستشراق بأنه: «الفهم في بعض الحالات من أجل السيطرة والتلاعب، وأحيانًا دمج ما يعد بوضوح عالمًا مختلفًا»[1].

ساعد الدارسون للاستشراق الاستعماريين في جعل غزوهم أمرًا مشروعًا، بل كان بعض المستشرقين مشتركًا اشتراكًا مباشرًا في مساعدة الإدارات الاستعمارية لبلادهم بتقديم تفسيرات يستطيع بها المستعمرون مجادلة المواطنين في فهمهم للإسلام: فمثلًا عمل لويس ماسنيون في خدمة وزارة الخارجية الفرنسية، وكذلك الإدارة الاستعمارية في المغرب، ووفقًا لماسنيون «فإن منحنى التطور يميل أكثر وأكثر نحو باريس، وإن غالبية جمهور الشمال الإفريقي يتجهون بأنظارهم نحو باريس، وليس الشرق»[2]، وأصبحت الدراسات الاستشراقية بالنسبة لكل من الاستعماريين الفرنسيين، والبريطانيين الذين كانوا يحتلون بلادًا إسلامية تفوق مساحتها جغرافيًا عدة مرات مساحة بلادهم، أصبحت هذه الدراسة «عونًا لإخضاع الأراضي المستعمرة، ووسيلة لتحقيق أهدافهم الاستعمارية»[3].

وسرعان ما استغل الاستعمار هذه الفرصة للترويج للأفكار العلمانية التي تسعى إلى فصل الدين عن السياسة، وقد وجد هذا الأمر تجاوبًا من بعض الحكومات في العالم العربي الإسلامي التي عارضت أن يكون الإسلام حكمًا على تصرفاتهم السياسية والشخصية، إن مبادئ الاستعماريين العلمانية عكست قواعد السلوك في ثقافتهم السياسية التي أخضعت الكنيسة إما للحاكم الفرد، أو للبرلمان، ووجدت هذه الأفكار العلمانية مؤيدين جدد لها ليس فقط بين العرب، والأتراك، والإيرانيين، بل أيضًا بين حكامهم السياسيين المتغربين، وكان من نتائج ذلك أن أفكارًا جديدة بخصوص صياغة «دستور»، وتطبيق المبادئ الغربية المتحررة مثل «الديموقراطية» التي تعمل من خلال ممثلين منتخبين في «برلمانات» قد غيَّر شكل البناء السياسي في الشرق الأوسط، وبدَّلته من الأساس.

(1) E.W.Said, op. cit., p.12.

(2) Muhammad Benaboud, «Orientalism and the Arab Elite, in the Islamic Quarterly, Vol. XXVI, No. 1, 1982, p.7.

(3) Ibid., p.9.

وأصبح الاستشراق بالتالي أداة مهمة قيّمة لتدمير الإسلام، وكانت المهمة الأساس في هذا التدمير هو نزع «مخالب» الإسلام التي يمكن أن تبطل الاستغلال الاستعماري للبلاد الإسلامية، لقد أعطى الاستشراق تفسيرًا غربيًا للإسلام، وشوّهت المعاني الحقيقية لبعض المفاهيم الإسلامية مثل الجهاد، والأمة، والتوحيد... الخ. وأنشئت أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية، ومُنحت درجات الدكتوراة في الإسلام للعلماء المسلمين، فليس من الضروري أن تكون ملتزمًا بالإسلام؛ لتكون إسلاميًا، بل يكفي أن تكون مؤهلًا في نظريات المستشرقين، وفي الحقيقة يُسأل طلاب الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية في الامتحان الشفوي حول نظريات المستشرقين، وليس على «الطلاب من أجل أن ينجحوا في الامتحان أن يعرفوا هذه النظريات، بل أن يقبلوها على أنها صحيحة جوهريًا»[(١)]، وقد أوجد مثل هذا التدريب، وهذا التفسير إسلامًا خاصًا بالمستشرقين يسير بموازاة الإسلام الحقيقي، وقد حقق الاستعماريون فوائد جمة من مثل هذا الإسلام «المتغرب»، واستهزؤوا بمفاهيم الأمة على أنها فكرة بعيدة المنال، وأشاروا إلى الجهاد على أنه «الحرب المقدسة» التي انتهت بنهاية الحروب الصليبية، وقد بلغ الأمر ببعض المستشرقين من أمثال: سنوك هورخرونيه الذي كان يعمل مستخدمًا عند الحكومة الهولندية إلى وضع الخطوط الإرشادية للحكم الاستعماري، وقد فصل هورخرونيه أهداف الاستشراق في خدمة الاستعمار تفصيلًا جيدًا؛ حيث رأى أنه «كلما كانت العلاقة بين أوربا والشرق المسلم حميمة، كلما كان ذلك أدعى لسقوط الدول الإسلامية في القبضة الأوروبية، ومما يهمنا نحن الأوروبيين أكثر أن نتعرف على الحياة الفكرية، والتشريع الديني، والخلفيات المفاهيمية للإسلام»[(٢)]، وقد أجريت العديد من الدراسات، وكانت دوافعهم فيها بصفة عامة انعكاسًا لآراء هورخرونيه.

---

(1) H.Algar, ‹The problems of Qrientalists› in Islamic Literature, Vol.XVII, No. 2, 1971, p.35.

(2) E.W.Said, op. cit., p.256.



وفي مجال البعد السياسي للإسلام بصفة خاصة، فإنَّ «نظرة المستشرق للعلاقات الاستبدادية بين الحكام المسلمين، وشعوبهم لم تكن نابعة فقط من التجربة النصرانية للإسلام العدواني، ولكن الأهم من ذلك أنها نابعة من التقويم البرجوازي الأوروبي لما هو «إسلام تقدمي»، و«إسلام متطرف» مما يتطلب السيطرة المباشرة عليه من أجل الإمبراطورية، ونظرًا لأن الإمبرياليين حكموا شعوبًا إسلامية كبيرة، فقد كان لابد وأن يحاولوا تحسين وضعهم بين هذه الشعوب، وجعل حكمهم لها مشروعًا مستفيدين من مجادلات قدّمها المستشرقون في أن الحكم الإسلامي، (وفي المقابل الحكم الاستعماري إنساني)، وأن النظرة السياسية الإسلامية تعترف بشرعية الحاكم الفعلي كأمر واقع، وأن الحكم الاستعماري أفضل من الفساد، وعدم الكفاءة والفوضى التي كانت سائدة فيما قبل، وأن السيطرة السياسية في البلاد الإسلامية لا تتعرض للحديث عن تفاصيل الحياة الاجتماعية، والدينية الإسلامية، وبالتالي فليس ثمة ضرر أساسي على الإسلام بهزيمته مادامت تقاليده السياسية المركزية لم تُخالف»[1]، وكانت الخدمة التي قدمتها هذه الاستنتاجات الاستشراقية هي تأكيد أيديولوجية الاستعمار.

وفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر عدد من المستشرقين الذين كتبوا في حياة النبي ﷺ، ومن أبرز هذه الإسهامات كتاب ميور (Muir): (حياة محمد) في أربعة مجلدات سنة ١٨٥٨م، وكتب سبرنجلر (Sprengler) كتابه المعنون: (Das Leben und Lehr de Muhammed›s) في ثلاثة مجلدات (١٨٦١م – ١٨٦٥م)، وكتب نولدكه (Noldake) سنة ١٨٦٣م كتابه بعنوان: (Das Leben Das Muhammed)، وكتب فلهاوزن (Welhausen): (محمد في المدينة) سنة ١٨٨٢م، وكتب كرل (Krel) سنة ١٨٨٤م كتاب: (Das Leben des Muhammed)، وكتب جريمه (Grimme): كتابه (محمد) في مجلدين (١٨٩٢م-١٨٩٥م)، وكتب بول (Buhl) سنة ١٩٠٣م: (حياة محمد)، وكتب مرجليوث (Margoliouth)

(1) T.Asad, Two European Images of Non-European Rule in T.Asad (ed.), Anthroe pology and the Colonial Encounter, London: Ithaca Press, 1975, p.117.





سنة ١٩٠٥م: (محمد وظهور الإسلام)، وكتب كايتياني (Caetani): (حوليات الإسلام) سنة ١٩٠٥م، وكتب تور اندريا سنة ١٩٣٦م: (محمد الرجل وعقيدته)، وكتب بلاشير (Blachere)؟: (مشكلة محمد) سنة ١٩٥٢م، وكتب مونتجمري وات: (محمد في مكة) سنة ١٩٥٣م، و(محمد في المدينة) سنة ١٩٥٦م، وقد ركزت معظم هذه الكتب على الموضوعات الشائعة في حياة الرسول ﷺ، وقد زعم بعضها أن (النبي) كان من أصل وضيع، وأنه يعاني من نوبات صرع، وشككوا في رسالته، وأنه تصرف كرسول في مكة، ورجل سياسة في المدينة، وأنه كان يُعبد من قِبل المسلمين كوثن، وأنه كان على علم بالإنجيل، وأنه حاول أن يشكل الإسلام بتقليد الأديان مثل اليهودية والنصرانية[1]، وكان هدف هذه الأعمال هو طمس شخصية الرسول محمد ﷺ، وأنه إذا ما تم لهم ذلك، فإن مصداقية النبي ﷺ ستفقد قيمتها؛ مثل هذه التعميمات التي لا برهان عليها كانت غالبًا مصدقة في الغرب، ومستخدمة من قبل المُنَصِّرين.

أظهر المستشرقون احتقارًا للآراء «الذاتية»، وتظاهروا بـ«الموضوعية»، ولكن بالرغم من هذا الادعاء الزائف، فإن تعصبهم عميق الجذور لم يبق مخفيًا، ومُمكن اكتشافه بسهولة في الأسئلة التي وجهها المستشرق في اختياره المنهجية المستخدمة في مثل هذه الدراسات، ولكن الموضوعية كانت أسطورة. يمكن للإنسان أن يكون موضوعيًا عندما يبحث في العلوم الطبيعية، ولكن هذا أمر غير ممكن عندما يتعلق الأمر بالدين والثقافة، إن كل الادعاءات المماثلة التي قدمها المستشرقون زائفة من الأساس[2].

وفي الغالب كان واضحًا تمامًا أن المستشرقين من خلال دراساتهم للقرآن كانوا مشغولين أساسًا بالبرهنة على كون الإسلام، إما أن يكون قد استعار أفكارًا، أو أنَّه تزييف للأفكار والعادات العربية المعروفة قبل الإسلام، أو أنه مأخوذ عن اليهودية

(1) M.Siddiqui, ‹The Holy Prophet and the Qrientalists› in Islamic Studies, Vol. XIX, No. 3, 1980, pp. 143-165.

(2) H.Algar, The Problems of Qrientalists, op. cit., p.32.



أو النصرانيـة، وقد علّق أحد الذين ترجموا معاني القرآن الكريم في القرن الثامن عشـر أن النبي «كان في الحقيقة مؤلفًا للقرآن ومخترعًا له، ولا يمكن للجدال حول هـذا الأمر مطلقًـا»[١]، وقد اعتنق هذا الافتراض عدد مـن المستشرقين، ولأسباب مختلفـة، فقد عـدّه البعض أنه «مجرد اختـلاق صرف وتلفيق»، وأنـه كان «شعلة عبقرية»، و«انعكاسًا لطاقته»[٢].

ورأى آخـرون مثـل ستوبـارت (Stobart) أن النبي ﷺ امتلك «نـارًا شاعرية وخيـالا»، وأكد هـذه الآراء، بل (Bell)، ورودسـون (Rodinson) الذين نظرا إلى القـرآن على أنه قصيدة صدرت عن لا شعور النبي[٣]، وكان بعض المستشرقين غير مقتنـع بهذه الأسباب، وافترض بأن القرآن كان «نتيجة التفكير الرغبي» الذي عبَّر عنه بالعقل اللاشعوري[٤]، بينما كان آخرون أكثر هدوءًا من أمثال مونتجمري وات الـذي اعتقد أن محمـدًا ﷺ ربما كان مخطئًا في أنّه «بدا له مـا يأتي الإنسان من خـارج نفسه قـد يكون مصدره «اللاوعـي»، وهكذا فيكون القـرآن «نتيجة الخيال المبـدع»[٥]. وطـرح عبد اللطيف طيباوي - رحمـه الله - الأسئلة المناسبة لدحض مجادلات المستشرقين، فكان مما قاله: «لنفترض جدلاً بأن القرآن من إنشاء محمد ﷺ، فكيـف يمكن لدارس التاريخ أن يبرهن على استعارته من المصادر السابقة؟! ومـازال المستشرقـون غير قادرين علـى البرهنة على ذلك إلا بطريقـة التخمين أو التنبؤ، فكيف يستطيع المستشرقون أن يعطوا قيمة أكاديمية لأعمالهم؟!»[٦].

(1) G.Sale, The Koran, London: Frederick Warne, 1899.
(2) F.J.I. Menezes, The life and Religion of Mohammed, the Prophet of Arabia. Sands, London, 1911.
(3) J.W.Stobard, Islam and its Founder. London: SPCK, 1876, p. 108 Also see: R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment. London: Macmillan, 1926. Also see: M.Rodinson Muhammad. Harmondsworth: Penguin Books, 1977.
(4) J.N.Anderson (ed). The World Religions. London: Frank Cass, 1965, p.56.
(5) M.Watt, Muhammad: Prophet and Statesman, Oxford University Press, 1961, p.15.
(6) A.L.Tibawi, English Speaking Orientalists. London: Islamic Culture Centre, 1964, pp. 10-11.





ولكـن القرآن لا يزال محيرًا لكثير من المستشرقـين الذين اعتقدوا أنه لا يمكن لأي مخيلـة مبدعـة أن تنتـج مثل هذا العمـل، وبات كثـير منهم مقتنعًـا بأنه كُتب بمساعـدة المصـادر اليهودية والنصرانيـة، وقد جادلوا بأن النبـي ﷺ كان رجلًا كثـير الأسفار منذ أيام شبابه عندمـا كان معتادًا على الذهاب في رحلات مع عمه، واعتقدوا أنه قابل بعض القساوسة والرهبان في هذه الرحلات بينما اعتقد البعض أنـه قابل رهبانًـا وقساوسة في مكة، بينمـا اعتقد البعض أنه قابـل نصرانيًا تحول إلى الإسـلام [1]، وجادلوا أنه لابد قد تعلّم مبادئ اليهودية من أستاذ غير معروف؛ وذلـك لأن «الرواية الطويلة، والمشتتة للأنبياء، والرسل اليهود (في القرآن) تتوافق في كثـير من التفاصيل مع التلمود، وليس ثمة شك في أصلها اليهودي» [2]، وحتى أن البعض اعتقد بـأن القرآن قد وُضع من قِبَل اليهـود والنصارى «استخدموا بصفة خاصـة لهذا الهدف .. من أجل تلبية طلبات الجمهـور» [3]، وثمة تأكيد أكثر سخفًا بأن النبي كان خاضعًا لسيطرة الأرواح الشريرة، وأن القرآن تعبير عن هذه الأرواح [4]، والملاحظـة الجديرة بالاهتمـام هي أن المستشرقين لم يكونـوا مستعدين مهما كان الثمن للاعتقاد بأن محمدًا ﷺ كان رسولًا، وأن القرآن وحي، وفي الوقت نفسه كانوا يقبلون بأنه ثمة إله، وأن موسى وعيسى رسولان من الله.

ولم يكـن للحديث الشريـف مكانة أفضل لدى المستشرقـين، فقد تعرض لأقوال وآراء خطـيرة حيـث حـاول المستشرقون أن يبرهنـوا أن الحديـث الشريف كله قد استُنْبِـطَ بطريقـة عشوائيـة متأثرًا بالتاريـخ، وأنه أُلّـف بدون عنايـة، وقد أثارت الدراسـات التـي قام بهـا كل من جولدزيهر وجـوزف شاخت في هـذا المجال عددًا مـن الشكوك حـول مصداقية الحديث [5]، وقد زاد المستشرقـون في توضيح مسألة

(1) Muhammad Khalifa, The Sublime Qur›an and Orientalism. London: Longman Group ltd. 1983, p.14.
(2) J.N.Anderson, op. cit., p.57.
(3) M.Khalifa, op. cit, p.10.
(4) Ibid,p.12.
(5) See: M.M.Azmi, Studies in Early Hadith Literature. Indiana: American Trust Publications, 1978.



دونيــة المسلمين وفوقية الغرب من خلال دراساتهــم، بالإضافة إلى ذلك فقد عُدَّت الحضــارة الإسلامية متفسخة بينما الحضارة الغربية حيوية، وبالتالي فالاستعمار يعــدُّ أمرًا معقولًا من أجل «تحضير» هذه الشعــوب ومؤسساتها، ولقد أصاب ألبرت حــوراني في قوله: «إن هناك اتجاهًا للنظر في التاريخ الإسلامي بلغة ظهر وانحدر، محمد يــزرع بذرة تصل إلى منتهى نموها في أوائل الدولــة العباسية، وتنحدر فيما بعــد مع الجمود الثقافي، وتستيقظ في القرن التاسع عشر بتأثير الحضارة الغربية، وبنشــاط الروح القوميــة»[1]، ومن أجل علمنة النظــام الاجتماعي الإسلامي اهتم المستشرقــون اهتمامًا خاصًا باستبدال النظام الغربــي بالنظام الإسلامي، ولذلك بــدأت حملــة انتقادية للنظــام الإسلامي من أجــل إضعاف الثقة بــه، فركزوا على الحديــث والرأي مبرزين المشكلات التي ظهــرت بين الفقهاء المسلمين خلال القرن الثــاني، ولكــن ظهر جيل جديــد من المختصــين بالشريعــة الإسلامية، ومــن أبرز الأسمــاء في هــذا الحقل: اجناز جولدزيهر، ود. أســ. مرجليوث، وجوسف شاخت، وان.جي. كولسن. (Culson).

ادعى جولدزيهر في كتاباته أن العمل الإسلامي لم ينشأ في حياة النبي ﷺ، ولكنه ظهر على مراحل بعد وفاته. وكان عنوان دراسات جولدزيهر (دراسات محمدية)، وكان ناقــدًا للكتابات الحديثة قائلًا: بــأن اسم الرسول ﷺ كان يُستحضر لإعطاء شرعيــة، وقد عمل على وضع بعض القواعد؛ لإضعاف موثوقية الشريعة الإسلامية. أمــا مارجليوث فقد ذهب إلى أبعد مــن هذا في كتابه: (تطور المحمَّدية) حيث قال: بــأن النبي لم يترك سُنَّــة، ولا حديثًا، وأن السُّنَّة قد أُلِّفت مــن العادات العربية قبل الإسلام التي تم تعديلها بالقــرآن، وأضاف هنري لامانس (Henri Lammmens) مؤكدًا للفكرة القائلة بأن السُنَّة لابد أن تكون قد سبقت الحديث في التكون، ورفض شاخت في كتابه الموسوم (أصول التشريعة المحمدية) الاعتراف بموثوقية أي حديث، وزعــم أن «كل حديث مــن أحاديث الأحكام يجب للنظر إليــه على أنه تعبير خيالي

(1) Albert Hourani, Europe and the Middle East. London: The Macmillan Press, 1980, pp. 18-20.





للتعاليم التي تكونت في زمن متأخر ما لم يثبت العكس»[1]، واختلف كولسن مع شاخت، ولكن إسهاماته لم تخالف الدراسات الاستشراقية بالرغم من نزوعه إلى الشك في بعض النواحي، إن كل ما حاول المستشرقون أن يفعلوه هو إثارة الشكوك حول موثوقية المصادر الإسلامية حتى لا يلتزم المسلمون بالشريعة.

ويتراجع الاستعمار في الشرق الأوسط بالنزول عن عليائه، وذلك لسبب بسيط واضح هو أن القوى الاستعمارية لم تعد في حاجة إليه، ومع ذلك فإن نفوذه لم ينقص، فقد ظهرت الإمبريالية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية بصفتها القوة الجديدة في الشرق الأوسط، وكانت كتابات المستشرقين الجدد مؤثرة في الجيل الجديد من المختصين في الدراسات الإسلامية، وقد عالجنا هذا الموضوع في قسم مستقل، والمهم أن نلاحظ هنا أن بعض المستشرقين تأقلموا سريعًا مع البرامج الجديدة مثل الدراسات الإقليمية التي أنشأها المختصون الجدد، وبالتالي استمروا في المحافظة على تأثيرهم وسيطرتهم على الجيل الجديد من هؤلاء المختصين.

فمن هؤلاء المستشرقين هاملتون جب الذي ترأس مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد (Harverd) الأمريكية بينما انتقل آخرون مثل جوستاف فون جرونباوم (Gustav von Grunebaum) إلى كاليفورنيا، شجع هاملتون جب الدراسات الإقليمية بإبراز أربعة مهام لها هي الآتية:

١. تقديم المعرفة للطلاب في المرحلة الجامعية.
٢. تدريب الطلاب في الدراسات العليا على فهم علمي للعوامل الثقافية المعقدة.
٣. ضرورة إتباع الأسلوب متعدد الثقافات.
٤. التنسيق بين العلوم المتعددة في منطقة معينة، وإثارة اهتمام مجالات الدراسة هذه؛ لأنه في العالم الحديث الذي تزداد العلاقات قُربًا، والحاجة

(1) Quoted in A.Siddiqui, «Early History of Islamic Law: An Analysis of Western Scholarship», in Journal of Social Scienes and Humanitles (Karachi), 1985, Nos. 1-2. p.85.



مُلِحّـة على الرجل الغربي للعيش والاتصـال بأناس من مجتمعات، وتقاليد غـير غربيـة، ولهذا فقـد أصبح من الضـروري تشجيع التعـاون مع علماء الاجتمـاع في إطـار مهمـة تفسير تركيبـة المجتمعات الآسيويـة والأفريقية المعاصرة، ودوافعها، كمـا أن موضوعات الاقتصاد مسألة خطيرة لا يمكن تركهـا لعلمـاء الاقتصـاد، ونحن يجب أن نعـترف مهما كانـت السلبيات، فـإن الشرق مهم جـدًا، بحيث لا يمكن تركـه للمستشرقـين»[1]، كما كان مـن الممكن أن يذوي نجم المستشرق جـب، وآخرون من جيله، ولكنهم كان لديهم الكفاية من بعد النظر؛ ليضعوا قواعد دراسات الشرق الأوسط، وقد جذب علماء الاجتمـاع وعلماء السياسة، ومهما يكن فإن الأفكار الخاطئة، وسوء الفهم واضحان في دراستهم للإسلام بشكل عام وللشرق الأوسط.

وبالرغم من ادعاء الموضوعية، فإن هذه الدراسات ما تزال تعكس المنهج المبني علـى مركزيـة الغرب، والتي شوهـت سياق الواقع، وفشلت في فهـم وجهة نظر أهل البـلاد موضـع الدراسـة، والنتيجة الطبيعيـة أن العديد من الدراسـات قد شملت الحقائـق السياسيـة، والاقتصاديـة للبيئة باستخـدام الأيديولوجيـة الغربية، وفي الحقيقة: «إن مستشرق اليوم الذي يكتب عن الإسلام يصب العداء الصريح الذي كان يحمله المنصر في القرن التاسع عشر، والذي نظر إلى الإسلام على أنه دين وثني لا يستحـق الاحترام، لقد تم تكريـس التسامح والتفاهم بين الثقافات في الدراسات الإسلامية تمشيًا مع الوفاق، وتجنب الخلاف الذي ميَّز تصرفات الولايات المتحدة في مغامراتهـا الأولى في الشـرق الأوسط، وتحت هذا التظاهر الكاذب بالفهم، فإن معظـم المستشرقين ينظـرون أساسًا إلى الإسلام على أنـه دين متخلف تمامًا، كما هـو الحال بالنسبة للشـرق الأوسط»[2]، إن المسار الفكـري للمستشرقين لم يتغير، ومازال يواصل بعناد وحزم، ويعمل بالطريقة نفسها، وتحت مسميات جديدة.

(1) Lyne Barbec, et. Al., Midle East Studies Network, Meerip Report no. 38, Washh ington DC, 1975, pp. 6-7.

(2) Ibid,p.19.

إن القوى المشتركة للمستشرقين القدامى، والمختصين الجدد لم تهدم أي أساس جديد ذلك أن الدراسات التي أنتجها الأخيرون مازالت «مطبوعة بمبادئ الاستشراق»، والتي يمكن ملاحظتها في الآتي:

١. ثمة اختلاف مطلق ومنتظم بين الغرب القومي والمتطور والإنساني والمتفوق، وبين الشرق الضال والمتخلف والوضيع.
٢. النظرة التجريدية للشرق .. فهو دائمًا مفضّل على الأدلة المباشرة المأخوذة من الدراسات الاستشراقية الحديثة.
٣. النظر إلى أن الشرق أبدي ومتماثل وغير قادر على تعريف نفسه، ولذلك فإن استخدام عبارات عمومية جدًا، ومنتظمة لوصف الشرق من وجهة النظر الغربية أمر حتمي، وحتى إنه من الناحية العلمية موضوعي.
٤. الشرق في الحضيض، فإما أن يُخْشى .. أو أن يسيطر عليه»[1].

هذه المبادئ جعلت دراسة المستشرقين للإسلام علمًا فريدًا، وكما يقول أوين (Owen): «كانت مسألة الدراسات الإسلامية دائمًا غامضة لأولئك الخارجين عنها. لقد تقمص المستشرقون بسبب معرفتهم الأساسية لعدد من اللغات الصعبة، وتركيزهم على فحص التطور التاريخي لدين معقد شخصية الطقوس الغامضة التي لا يمكن أن يشارك فيها إلا فئة قليلة مدربة تدريبًا كافيًا، وقد تصرفوا غالبًا وفقًا لقوانينهم التي يغلب عليها طابع السرية، فكل مطبوعة تذكير لبق للشخص غير المكرس بأنّ دوره هو أن يستمع، وأن يتعجب، ولكن لا يسأل أبدًا، أو يقترح بوجود طريقة بديلة لأداء هذه الطقوس»[2]، ولكن هذا الفرع المعرفي أجبر على الخضوع؛ لتغيرات بسبب الأسلوب الواقعي، وضرورات الأوضاع في العالم العربي الناشئة عن الوجود الأمريكي.

وقد ظهرت في العقود الأخيرة القليلة أفكار وصور عديدة من خلال كتابات

(1) Edward Said, Orietalism. Op. cit, pp. 300-301.
(2) Roger Owen, «Review of the Cambridge History of Islam,in Journal of Interdisciplinary History, Vol. 4, No. 2, Autumn 1973, p.287.



المستشرقين والمُنصِّرين، وثمة تصنيف من خمسة أقسام قدمه المستشرق واردنبرج (Waardenburg)، وهو كالآتي[١]:

أولًا: رسم المُنصِّرين من أمثال هـ. كريمر (H.Kraemer)، واس.ام. زويمر (Zwemer) صورة ثابتة للإسلام باستخدام نظام القيم السلبي الذي يعدُّ مضادًّا للقيم الاجتماعية، والثقافية، والدينية التي يتمسكون هم بها، وكذلك العالم الغربي.

ثانيًا: يعدُّ الإسلام صنفًا من الدين، وحضارة بين الحضارات في العالم، وقد دعا مستشرقون من أمثال سي.هـ. بيكر. (C.H.Becker)، وجي أي فون جرونباوم إلى فكرة مفادها أن الإسلام جامد، وغير قابل للتغيير، وهنا أيضًا ثمة فكرة ثابتة عن الإسلام.

ثالثًا: إن كُتَّابًا من أمثال هاملتون جب، ودنكن ماكدونالد (Duncan Mac Donald) تخيَّلوا صورة إجمالية، لا تحدث فقط عندما تفحص الحقائق، وتشرح في سياقها الزمني، وارتباطاتها العلية والبنائية، ولكن عندما تُصنَّف في كليتها تحت المفهوم الإجمالي للإسلام حتى استخدم هذا ككيان افتراضي»[٢].

رابعًا: لقد نُظر إلى الإسلام في إطار صورة مثالية من بعض المستشرقين من أمثال المستشرق أي.جي. آربري (A.J.Arbery)، وال. ماسنيون. مثل هذا الإسلام الموضوع في القالب المثالي يُرى على أنَّه يتصف بقيمة إيجابية دقيقة معينة، وسوف يشير إليها المختصون بالإسلام، ويربط ما يعده قيمًا لأفكار إسلامية معينة، وحقائق أو أحداث، فإن المختص بالإسلام سيصل إلى تقويم للإسلام على أساس هذه القيم[٣].

خامسًا: لقد صُوِّر الإسلام في صورة مرنة «بحيث لا يعود الإسلام فيها نظرة

(1) Jacause Waardenburg, Changes of Perspective in Islamic Studies over the Last Decades. Humaniora Islamical, 1973, pp.247-260.

(2) Ibid,p.250.

(3) Ibid,p.250.

عامة للمجموع الكلي للحقائق، ولكنه يجزأ إلى عدد من النظرات المعينة والأكثر اقتصارًا، فالصورة المرنة للإسلام يمكن أن يقال: إنها أصبحت مسيطرة على النقاط الأربع التي ذكرت في تحديد مفهوم الإسلام، وهذا يتعلق بالاستخدام المستمر للدراسات الواقعية في موضوعات محددة من خلال سياق تاريخي أو اجتماعي جامد، وهذا مع الحد الأدنى من التعميمات والتقويمات»[1].

لقد أجريت العديد من الدراسات حول التاريخ الحديث والمعاصر للعالم الإسلامي قام بها ألبرت حوراني وام. كر (M.Kerr)، ودبليو. سي. سميث، وقد ركز آخرون من أمثال: جي. بيرك (J.Berque)، وهـ. باون (H.Bowen)، وهاملتون جب واي. لابيدوس (I.Lapidus)، وماكسيم رودنسون (M.Rodenson)؛ ركز هؤلاء على التاريخ الاجتماعي للمجتمعات المسلمة. وثمة علماء آخرون من أمثال: آربري وهـ. كوربين (H.Corbin)، ولوي جارديه (L.Gardet)، وهـ.هنري لاوست (H.Laoust)، وان. روزنثال (N.Rosenthal)، وجي. شاخت (J.Schacht)، وآر. والزر (R.Walzer)، وهـ. أي. ولفسون (H.A.Wolfson)، وهؤلاء ركزوا على جوانب من الفكر الإسلامي والتاريخ: الفقه وعلم الكلام، والفلسفة والتصوف. وأخيرًا نجد أمثال: أي آبل (A.Abel)، ودبليو. فخت (W.Fischt)، وأس. دي. جويتن (S.D.Goitein)، وام. بيرلمان (M.Perlman)، ودبليو. سويتمان (W.Sweetman) حيث قام هؤلاء بدراسات مقارنة مع المجتمعات الدينية الأخرى، وقد انبثقت كل هذه الكتابات من المصالح الخاصة بالعالم الغربي، وكما ذكر واردنبجر: «ظلت الدراسات الإسلامية لمدة طويلة مشروعًا أوروبيًا لا ترتبط فقط بكتابات أدبية نقدية، ودراسات تاريخية، وبخاصة في الدراسات الكلاسيكية والإنجيلية، ولكن ترتبط بالحقيقة التي مفادها أن ثمة مواجهة في تاريخ معظم الدول الأوروبية مع الشعب الإسلامي على الأرض الأوروبية، أو في البحر المتوسط، أو في مستعمراتها»[2].

(1) Ibid,p.51.
(2) Ibid., p. 259.



حاول بعض المستشرقين من أمثال كوربن أن ينشروا لهيب العلمانية[1]، ولكن أعماله لم تقدم أي جديد، وبحسب تعبير عالم إسلامي، فإن كتابات كوربن تضمنت «تشويهًا خطيرًا لكل من الإسلام السنّي والشيعي»[2]، فقد كتب كوربن عما أسماه «الإسلام الإيراني» بهدف إيجاد انقسام زائف بين العرب والإيرانيين، كانت كتاباته مفيدة للحكام العلمانيين مثل محمد رضا بهلوي الذي أراد أن يفصل بين الحضارة الإيرانية والإسلام في التاريخ الإيراني، وبالإضافة إلى ذلك كانت ادعاءات كوربن حول الرابطة المتصلة بين إيران ما قبل الإسلام، وإيران الإسلامية مساعدة لبهلوي الذي كانت تتلخص في تقديم فكرة اتصال سلسلة الحكم الملكي إلى ألفين وخمسمائة سنة ماضية، وذلك ليجد مبررًا شرعيًا لعرشه من مصادر ما قبل الإسلام، وليس من الإسلام، ويوضح هذا العرض لرؤية كوربن للإسلام كيف يراد فصل الدين عن السياسة؟ وليس مدهشًا أن يلحظ الغار «مدى التفاوت بين الإسلام وفقًا لوصف المستشرق والإسلام الذي يعرفه المسلمون من العقيدة، والتجربة، والممارسة حتى ليبدوان ظاهرتين متضادتين، أو حتى لا علاقة بينهما»[3].

الاستنتاج:

كان الاستشراق خطة استعمارية لإيجاد فرع معرفي جديد لتفسير الإسلام، فإذا أمكن من خلال هذا التفسير إثارة الشكوك، وزيادة درجة القضايا الجدلية في عقول المسلمين، فعندئذ لن تضعف هذه التقسيمات من الالتزام بالإسلام فحسب، ولكنها ستجعل المستعمر قادرًا على السيطرة على البلاد الإسلامية دون خوف من تهديد الإسلام، وبالرغم من أن معظم المستشرقين قد هلكوا منذ مدة إلا أن تلاميذهم يواصلون التقليد الاستشراقي من خلال أقسام الدراسات الإسلامية العديدة في المعاهد الغربية، وثمة انسجام وتوافق بين عملي المستعمر والمستشرق

(1) Hamid Algar, The Study of Islam, the work of Henry Corbin in. Religious Studies Review, Vol. 6, No. 2, April 1980. Most of the discussion on Corbin is from Algar›s excellent analysis.

(2) Ibid., p. 87.

(3) Ibid., p. 85.

في البـلاد الإسلامية، فـالأول: غيّر تركيبـة المجتمعات الإسلامية بإبـدال النظام السياسـي بنمـاذج علمانيـة تتكون من النظريـات الغربية من مثـل الديمقراطية، والقوميـة، والأحزاب السياسيـة، والانتخابات، وكذلك أدخـل المستعمرون الأنظمة القانونيـة العلمانية لتحل محل الشريعة بينما يجب أن نعلم بأن المستشرقين تمكنوا من تقويض الإسلام من الداخل بإثارة الشكوك حوله.



الفصل الرابع

المنصرون والحضارة

أضافت حقبة الاستعمـار مجالات جديدة من العداوة بين النصارى والمسلمين، فالنصارى الذين فقدوا الأمل في السيطرة على المسلمين، رفعوا رؤوسهم مرة أخرى خلال الحكم الاستعماري في البلاد الإسلامية، وبدأ المنصّرون يتدفقون على البلاد المستعمرة، وأسسوا إرسالياتهم بهدف تحويل المسلمين إلى النصرانية، وتتمثل خطة هـذا الفصل في تقديم موجز عام لنشاطـات البعثات التنصيرية، ومناقشة كتابات مختـارة لاثنـين من المنصريـن لإعطاء القارئ فكـرة عن كيفية تشويـه مثل هؤلاء المنصرين للإسلام، وأنهم يقدمون بذلك خدمة للاستعمار على المدى البعيد.

كان سقوط القسطنطينية (اسطنبول حاليًا) سنة ١٤٥٣م، في يد الأتراك حدثًا لم ينسـه الغرب مطلقًا[1]، ويتخيل المنصرون الآن تنصير آسيا الصغرى كلها، فقد بعـث المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الخارجية بعثات إلى تركيا منذ العشرينات مـن القرن التاسـع عشر، وتم تأسيـس أول كنيسة نصرانية سنـة ١٨٤٧م، واستغل تغيـير بعض الأرمـن معتقداتهم مرتكـزًا للبعثات التنصيرية، وبـرز نشاط العديد من الطوائف البروتستانتية مثل الإنجليـكان، والبنتكوستال، والبابتست الجنوبية، والسبتيون، كما برز من الكاثوليك الأرمن، والكلدانيون، والملكانيون، ونشطت كذلك الكنائس السورية حيث بـرزت حركات الأرثوذكس اليونانيين، وبطريركية أنطاكيا، والكنائس السورية الأرثوذكسية، ومورست النشاطات التنصيرية بطرق متعددة من خلال المعاهد التربوية، والمستشفيـات والملاجئ والإذاعة... الخ، ولكن بالرغم من كل تلـك الجهود لم يجـاوز عدد النصارى نسبة ١٪ من سـكان تركيا «فالإسلام .. هـو أعظم عائق للنصرانية في تركيا»[2]، وبالرغم من قيام مصطفى كمال بعلمنة تركيـا إلى حد ما، لكن ذلك لم يمنع الحجاج من السفر لأداء فريضة الحج، أو من

(١) عقدت جامعة لنـدن (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) ندوة عام ١٩٥٢م بالاشتراك مع السفارة اليونانية بمناسبة مرور خمسمائة سنة على سقوط القسطنطينية.

(2) D.M.McCurry (ed). World Christianity: Middle East, Montavia, CA: Missions Advanced Research Communications Center, 1979, p.114.



تشكيل الأحزاب السياسية الإسلامية، ولكن الحقيقة الباقية أنه بالرغم من فشل البعثات التنصيرية إلا أنها حاولت أن تكدر مشاعر الشعب.

ويعود تاريخ التنصير في البلاد الأخرى كمنطقة الخليج، وسوريا، والعراق إلى القرن التاسع عشر: ففي سوريا يبلغ عدد النصارى عشرة في المائة من مجموع السكان، هذا القطاع النصراني قديم جدًا، ويعود إلى سنة ١٠٥٤م، عندما انفصل اليونانيون الشرقيون عن روما،وفي القرن الثالث عشر سقطت حلب في أيدي الصليبيين، وكانت البعثات الفرنسية -وفيما بعد الأمريكية أيضًا- نشطة جدًا في هذا البلد. أما حاليًا فإن هذه البعثات توزع الكتابات الإنجيلية، وتدير المعاهد التعليمية، وتبث برامج إذاعية من راديو (Elwa) (ليبريا)، وراديو صوت الإنجيل من لبنان وقبرص، ورابطة إذاعات الشرق الأقصى من (سيشل)، وراديو حول العالم (موناكو)، ويكوّن الأرمن، واليونانيون، والأرثوذكس السوريون مجتمعات كبيرة، ويأتي بعدهم الكاثوليك والبروتستانت، ومن الهيئات البروتستانتية النشطة جدًا، البعثة النصرانية الحمراء (Christian Red Mission)، والتحالف الوطني للدعوة النصرانية (National Evangeical Christian Alliance)، والكنيسة التنصيرية الأرمنية، والمجلس الوطني للدعوة للنصرانية لسوريا ولبنان (National Evangeical Christian Synod of Syria and Lebanon).

واستمر عمل الفرنسيسكان، والبطريركية اللاتينية في الأردن منذ عام ١٨٤٧م، وثمة تمثيل لكل من الكاثوليك والبروتستانت، ولم يبدأ الأخيرون عملهم في هذا البلد إلا في هذا القرن، ويمثل النصارى عشرة في المائة من عدد السكان، وهم مستمرون في عملهم التنصيري من خلال توزيع «الكتاب المقدس»، والتعليم، والإذاعة.

وبالرغم من أن البعثات التنصيرية وجدت في العراق حول نهر دجلة منذ سنة ١٠٠م إلا أن العمل التنصيري المنظم لم يبدأ إلا في الأربعينات من القرن التاسع عشر حيث بدأه البروتستانت، وكان أكثر المنصرين شهرة جون فان اس (John Van Ess) الذي أرسل من قبل الكنيسة الإصلاحية الأمريكية سنة ١٩٠٢م (Reformed church of America)، وكانت العراق -حينئذ- جزءًا

من (الإمبراطورية) العثمانية، لقد أقام فان اس علاقاته الحميمة مع كل من البريطانيين والعراقيين، ونال تقديرًا كبيرًا لمهارته في التعامل مع الرسميين الأتراك، وفتح مدرسة فيما بعد في البصرة، وكانت بداية لتوسيع النشاط التنصيري فيها.

وقد استطاع البريطانيون بالتعاون مع فان اس تحويل العراقيين إلى أعداء (للإمبراطورية) العثمانية، وظهر تأثير فان. اس في العراقيين في مسئولين عراقيين من أمثال نوري السعيد الذي كان يعمل حينئذ في الجيش، وأصبح فيما بعد رئيسًا للوزراء، وكان مكتب فان. اس. مكانًا لاجتماع الضباط والمشايخ العراقيين الذين كانوا يرفضون الحكم التركي، ونجح فان. اس من خلال العلاقة السرية أن يصدر بيانًا مع هؤلاء لتأييد الحلفاء ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، وعدَّه الأمريكيون مفيدًا للغاية حتى إنّهم عيَّنوه قنصلًا لهم في البصرة سنة ١٩١٤م، وحينما أصبحت العراق فيما بعد تحت الوصاية البريطانية تعاون فان. اس. مع البريطانيين؛ لدعم قوتهم في العراق.

وكما يبدو لم يكن هؤلاء الرجال مجرد منصِّرين، بل كانوا أيضًا وكلاء للاستعمار، وبصفتهم هذه قاموا بنشر الأفكار القومية، ونظرًا لعداوتهم للإسلام، فقد حاولوا أن يشوِّهوا مبادئه، وقد استخدم فان. اس. في كتابه: (لقاء العرب) (Meet the Arab) عبارات من أمثال: «لو كان محمد رسولًا كما يؤكد بعض المؤرخين...»[1]، ومنع الكتاب في إيران لفترة من الزمن، وعند وفاته سنة ١٩٤٩م، كان فان. اس – المنصر – يعمل في وزارة الخارجية الأمريكية مستشارًا في شئون الشرق الأدنى.

وواصل خلفاء فان اس التقاليد التي ابتدعها علمًا بأنه لم يقتصر على النشاطات التنصيرية فقط، وكان لابد لهذا العمل من التوقف عندما طردت الحكومة العراقية كل المنصرين سنة ١٩٦٩م، واستمر العمل التنصيري من خلال البعثات الفرنسية

(1) H.J.Bergman, «The Diplomatic Missionary: John Van Ess in Iraq». In The Muslim World, Vol. LXXII, Nos. 3-4 (July-October, 1982), p. 192.



والإيطاليـة تحت ستـار الفنون الأدبية بتوزيع الكتابـات التنصيرية، وإدارة المعاهد التعليمية، وبث البرامج الدينية[١].

وتعـود الروابـط النصرانية مع إيران إلى ظهور الدولـة الساسانية سنة ٢٢٦م، ففـي عام ٣٢٣م، أشاد الإمبراطـور قسطنطين بالملك الفارسي شاهبور الثاني على معاملة النصـارى معاملة جيدة، وتسامح بعض خلفاء شاهبور مثل أردشير الثاني، وشهبـور الثالـث، وبهرام الرابع مع النصـارى بينما عاملهم آخـرون مثل يزدجرد الأول معاملـة حسنة، وكان ثمة معارضة للنصرانيـة في إيران من قبل رجال الدين الزرادشتيـين الذين استنكـروا نشاطاتهم التنصيرية، وبفتـح العرب لبلاد فارس انضـوت النصرانيـة تحت لواء الحكـم الإسلامي، وتغيرت «الفكـرة التي مفادها: لكـي تكـون فارسيًا يجب أن تكـون زرادشتيًا، واستبدلت بالعبـارة القائلة: أن تكون فارسيًـا يجب أن تكون مسلمًـا، وهكذا لم يبق مكان للنصرانية الفارسية»[٢]، ولكن هـذا لم يمنع النصـارى من نشاطاتهم التنصيرية التـي ازدادت عندما غزا المغول بـلاد فارس، فقد أيَّد النصـارى المغول ضد المسلمين، وبذلـك أصبحوا «المجموعة المفضلـة في إيران، وأصبح المسلمون الغالبية المضطهدة»[٣]، وكان سلوك النصارى تجاه المسلمين قاسيًا، ومتكبرًا حتى إنهم «شربوا الخمر علانية خلال شهر الصوم وسكبوا الخمر على ملابس المسلمين، وفي مساجدهم، وسارت مواكبهم في الشوارع

---

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل حول النشاط التنصيري في العالم العربي تراجع الكتب الآتية:

١. مصطفى خالد وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. بيروت وصيدا: المكتبة العصرية، ط٥ (١٩٧٣م).

٢. إبراهيـم عكاشة علي. ملامح عن النشاط التنصـيري في الوطن العربي. الرياض: إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٣. عبـد المالك خلف التميمي. التبشـير في منطقة الخليج العربي. قبرص: دار الشباب والكويت: مؤسسة الكميل، ط٢ (١٩٨٨م).

٤. هـ. كونوي زيتلر. أصول التنصير في الخليج العربي. ترجمة مازن مطبقاني: المدينة المنورة: مكتبة ابن القيم (١٤١٠هـ-١٩٨٩م) (المترجم).

(2) R.E.Waterfield, Christians in Peria. London: George Allen and Unwin, 1973, p. 37.

(3) Ibid., p. 49.

تحمل الصليب، وأمروا أصحاب الحوانيت أن يقوموا عند مرور الموكب، وعاملوا الذين لا يقومون معاملة قاسية»[١].

وكان من نتائج التآمر النصراني مع ملوك المغول أن اتخذ أباكا ولد هولاكو زوجة نصرانية، وهي ابنة الإمبراطور البيزنطي، وبالرغم من هذا التآمر إلا أن المنصِّرين فشلوا في كسب المغول إلى دينهم، وعندما أسلم الحاكم المغولي قازان خان (١٢٩٥م-١٣٠٤م)، وكان ذلك سنة ١٢٩٥م؛ حيث كان إسلامه «الضربة النهائية والحاسمة لآمال الكنيسة الفارسية»[٢]، ووقع خليفة قازان معاهدة صداقة مع مصر، «وكان التضامن الإسلامي في النهاية واضحًا للجميع»[٣]، وتقلصت طموحات البعثات النصرانية في إيران، وقد وفد إلى بلاط شاه عباس (١٥٨٧م-١٦٢٩م) بعض القساوسة اليسوعيين، وفي سنة ١٦٠٤م أرسل البابا مندوبًا إلى إيران لتأسيس بعثة كرملية[٤]، وكتب المندوب البابوي بول سايمون (Paul Simon) إلى البابا قائلًا: «إن الملك الفارسي قوي جدًا، ولم يعد في حاجة إلى الأمراء النصارى لمساعدته»[٥]، وقد أصبحت بعض هذه البعثات على صلة وثيقة مع الشاه لدرجة أنه بعث أحدهم، وهو: جون ثاديوس (John Thaddeus) سفيرًا إلى قيصر روسيا سنة ١٦١١م، ولكن الروس اعتقلوه على أنه جاسوس فارسي، وبعد تدخل شاه عباس أطلق سراحه واستقر في أصفهان، ومكث الكرمليون مائة وخمسين سنة ينعمون بضيافة السلاطين، وزار إيران سنة ١٦٢٨م منصرون فرنسيون من طائفة الكبوشي من الفرير (Frair)، وعُيِّن الأب جون ثادوس في سنة ١٦٢٣م أسقفًا على أصفهان من قبل البابا، ولكن شاه عباس أصدر مرسومًا سنة ١٦٢٩م – قبل وفاته – يقضي بأن أي نصراني يدخل الإسلام يصبح من حقه أن يرث كل أملاك أقاربه حتى الجيل السابع، وبذلك دخل ألوف من النصارى في

(1) Ibid., p. 50.
(2) Ibid., p. 52.
(3) Ibid., p. 52.
(4) Ibid., p. 52.
(5) Ibid., p. 65.



الإسـلام مفسدين عمـل الكرمليين، وسمح للمنصرين الكاثوليـك أن يؤدوا عملهم دونما عوائق، وقد كان المنصرون البروتستانت قد بدأوا نشاطهم في منتصف القرن الثامن عشر، وقد جاءت إلى إيران بعثات متعددة من ألمانيا من الإخوة المتحدين، أو الطائفة المورافية (Moravian).

وأرسـل الإنجليـز منصّرين مثل هنري مارتـين (Henry Martyn) الذي اتخذ مـن شيراز قاعدة لعمله، ويرى أحد الملاحظـين أن مارتين أظهر نفسه متفوقًا على الإيرانيـين في كل المعـارف[1]، وبـدأ الأمريكيـون عملهم في تبريـز عندما افتتحت بعثة البرسبتاريـان المتحدة (Unite Brespeterian) مكاتبهـا سنة ١٨٣٤م، بدأت البعثات التنصيرية عملها بدروس «الكتاب المقدس»[2]، وبيع الكتابات الإنجيلية[3]، ولكن ظـل عملها في تحويل المسلمين إلى النصرانيـة فاشلًا إلى حد كبير، ونجحوا في أوسـاط الأرمن فقـط، ووصلت النشاطـات التنصيرية قمّتَهـا في هذه الحقبة، ولم يَدَّخـر المُنَصِّـرون جهـدًا في الحط من شـأن الإسلام في أذهـان المسلمين؛ كي يتحولـوا عنه إلى النصرانيـة، ومن هؤلاء المنصِّرين نذكر اثنين هما صموئيل دبليو زويمـر (Samuel W. Zwemmer) (١٨٦٧م-١٩٥٢م)، ودنـكان. ماكدونالـد (Duncan B. Macdonald) (١٨٦٣م-١٩٤٣م). فـالأول أمريكـي الجنسيـة بينمـا يحمل الثـاني الجنسية الإنجليزية، وستعطينـا أفكارهما فكرة عن نظرتهما إلى الإسلام.

كان زويمر عضوًا في الكنيسة الإصلاحية الأمريكية (RCA)، وكان كثير السفر إلى الشـرق الأوسط، وكان يؤمن بضرورة الاتصال المباشـر مع المسلمين؛ لأنه كان يرى أن ثمـة «طريقتان لدراسة الإسلام إحداهما طريقة العالم ومَكْتَبَته. والأخرى ممارسة التنصير، وجادل بأن: «الرجل الذي يخرج إلى الطريق .. هو الذي يعرف

(1) Ibid., p. 65.
(2) D.M.McCurry, Op. cit, p. 35.
(3) Ibid., p. 35.

الحقيقـة ...»[1] تنـاول زويمر الإسلام، وهـو يحمل أفكارًا سلبيـة حوله، فهو يراه «تهديدًا وخصمًا للنصرانية»[2]، (قد اعترف بعيسى نبيًا من قبله إلا أنه خالفه في أن يصلح مثل هذه الخلافات الجوهرية، والعميقة الجذور، ويجب علينا أن ننتصر أو نُهزَم،فالإسلام في أصولـه، وتاريخه، ومواقفه الحديثة ... ضد النصرانية»[3]، ويعتقـد زويمر أنَّ الطريقة السريـة، أو الأسلوب غير المباشـر أسلوب قديم، وأنهم يعرفون أن النصرانية والإسلام متقابلان كندين من أجل السيطرة على العالم»[4].

لم يكـن زويمر استثنـاءً للكتابات التعصبية في القـرون الوسطى حيث لم يترك فرصـة لاحتقـار شخصية الرسول، فقـد اعتقد زويمـر أن الإسلام سـرق قداسة المسيح كابن لله، ووضع نبي الإسلام في مكانه، وهكذا لم يجد زويمر بأن النبي ﷺ كان رسـولاً مـن الله ذلك أن «الدين الذي أسسـه محمد ترك في كل مكان بصمات تدل على حياته وشخصيته»[5]، كان للرسول ﷺ صورتان وفقًا لزويمر: إحداهما: «محمـد في التاريخ» الذي سلـب القوافل، وذبح أسرى الحـرب، وقاتل في المعارك، والأخـرى تظهره على أنه أكمل البشرية من جهـات متعددة من الكمال، وأبعد بشر

---

(1) S.W.Zwemer, The Cross Aboue the Crescent: The Validity, Necessity and Urgency of Missions to Moslems. Grand Rapids: Zonder Publishing House, 1941. All quotations from Zwemer and Mac Donald taken from an excellent thesis by P. ipcma, ‹The Islamic Interpretations of Duncan B. Mac Donald & S.M.Zwemer: An analytical evaluation›. Ph. D. thesis. Conon: Hartford Seminary, 1971.

(2) Ibid., p. 55.

(3) S.W.Zwemer, The Moslem Doctrine of God: An essay on the character and attributes of Allah according to the Koran and Orthodox Tradition. New York: Young people›s Missionary Movement, 1905, p. 119.

(4) S.W.Zwemer, Across the World of Islam. Studies in Aspects of the Mohammedan Faith and in the present awakening of the Moslem Multitude. New York: Fleming H. Revell Co., 1929, p. 31.

(5) S.W.Zwemer, The Moslem World, New York: Young people›s Missionary Movement, 1908, p. 25.



عن الدناءة والآثام»[١]، ويرى زويمر أن الصورتين تناقض إحداهما الأخرى.

وقد استخدمت كل هذه المجادلات؛ لتؤكد الرأي القائل أن النبي «كان دجالًا ماهرًا من أول يوم في رسالته إلى يوم وفاته»[٢]، ويزعم زويمر أن النبي كان قد جمع أفكارًا، وقصصًا من يهود المدينة، ورتبها بطريقة مخادعة على أنها وحي من الله، فليس عجيبًا أن الأدب العربي يزدحم بكل أنواع الوثنية»[٣]، وليزيد زويمر من تحقيره لشخصية الرسول ﷺ يواصل جدله بقوله: مادام النبي قد اعترف بعيسى نبيًّا من قبله إلا أنَّه خالفه في «كل ما يدرك بالحواس من الموعظة على الجبل ليس فقط في حياته الخاصة، ولكن في نبوته الرسمية»[٤].

ومن الخطط المستخدمة في كتابات النصارى المتعصبة إلقاء التهم بطريقة التلميح حول شخصية النبي، وهكذا فليس مدهشًا أن يكتب زويمر «عندما ماتت خديجة جعل القانون الخاص به مَرِنًا كما كان سابقًا حيث لم يكن كافيًا للحد من شهواته»، ويستمر زويمر في ذكر زواجاته[٥]. هناك إشارات مستمرة في كتابات زويمر إلى إله المسلمين الذي يميز زويمر بينه، وبين إله النصارى؛ لأن «فكرة محمد عن الله تتضمن الرفض المتعمد للفكرة النصرانية عن الإله — الأب، والابن، والروح القدس»[٦]، وبعد أن قدم زويمر صورة خاطئة ومزيفة للإسلام نجده يستنتج بأنَّ «تدمير الإسلام هو إعداد إلهي للدعوة في بلاد المسلمين، وكسب قلوبهم لولاء جديد»[٧]، وهكذا نصح المنصِّرين بأن «حياة المسيح وحدها يمكن

(1) S.W.Zwemer, Islam: A challenge to Faith. New York: Student Volunteer Movement for Foreign Missions, 1907, p. 31.

(2) S.W.Zwemer, Arabia, The Cradle of Islam. New York: Fleming H. Revell Co., 1900.

(3) Ibid., p. 125.

(4) S.W.Zwemer, Islam: A Challenge to Faith, Op. cit., pp. 42-45.

(5) Ibid., p. 42-45..

(6) S.W.Zwemer, The Moslem Doctrine of God, op. cit., p. 92.

(7) S.W.Zwemer, The Disintegration of Islam. New York: Fleming H. Revell Co., 1916, p. 10.

أن ترتقي بمفاهيمهم الأخلاقية ... إن قوة المسيح وحدها يمكن أن تطلقهم إلى حرية أبناء الله، أليس علينا أن نظهر لهم هذه الحرية؟»[1]، كذلك نصح القوى الاستعمارية بأن عليهم أن يهتموا في سياستهم تجاه البلاد المستعمرة؛ لأنه «ليس ثمة حكومة نصرانية سوف تدعم مثل هذه المؤسسات المحمدية؛ لأنها تعارض تمامًا تطور الشعوب الاقتصادي والسياسي»[2]. وبطريقة أخرى: كان زويمر ينصح الحكام الاستعماريين بتدمير الإسلام، وهذا ينسجم مع خوفه منه؛ لأنه كان يعتقد إما النصر، أو الهزيمة. أما دنكان ماكدونالد، فمنصِّر من الكنيسة البرسبيتريان الأسكوتلاندية (Presbyterian church of Scotland) ازداد اهتمامه بالشعوب الإسلامية والإسلام عندما كان طفلاً من خلال قراءته لكتاب: «ألف ليلة وليلة»، «لقد أتقن اللغة العربية، وبدأ يُعَدُّ مصدرًا موثوقًا في الإسلام، ومن كتبه عن الإسلام: (جوانب من الإسلام)، و(تطور العقيدة الاسمية)»[3] لم تلق هذه الكتب رواجًا فحسب، بل دُرِّست في جامعات الدول الإسلامية أيضًا، ووضعت ضمن مناهج التدريس في الدراسات الإسلامية. لقد أُعيد طبع كتابه: (تطور العقيدة الإسلامية) في الباكستان سنة ١٩٦٠م، واستخدم لأغراض التدريس لسنوات عديدة[4]، اعتقد ماكدونالد بأن «المجتمعات الإسلامية سوف تعاني من انهيار الإسلام الناتج عن هجوم الحضارة الأوروبية، وحالما تنهار أسطورة محمد، وتُرى شخصيته في المنظار الحق، فإن البناء كله سينتهي، وعندئذ ستقوم المدارس النصرانية، وكذلك الوعاظ بإنقاذ هؤلاء الناس .. نحو النصرانية»[5].

ورأى ماكدونالد أن أكثر الوسائل فعالية؛ لتحقيق أهداف التنصير ليس الهجوم على «المحمدية مباشرة، ولكن بالسماح للأفكار الجديدة أن تقضي على

(1) S.W.Zwemer, Across the World of Islam, Op.cit., p. 31.
(2) S.W.Zwemer, The Disintegration of Islam, Op. cit., p. 136.
(3) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, New York: The Macmillan Co., 1911. D.B. Mac Donald the Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory. New York: Charles Scribners, 1903.
(4) It was reprinted by Premier Book, House in Lahore, in 1959.
(5) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, Op. cit., pp. 12-13.



أسسها»[1]، وعَدَّ ماكدونالد الإسلام هرطقة نصرانية، ويجب على الكنيسة النصرانية أن تبذل الجهد لإكمال رسالة محمد الناقصة، وتهدي شعبه للخروج من الهرطقة إلى شخصية المسيح المطوقين بها[2]، أشغل ماكدونالد نفسه بدراسة العقل الشرقي؛ لأن «الفرق الأساسي في العقل الشرقي ليس قوته تجاه الغيبيات ولكن كذلك عدم قدرته على بناء نظام للأشياء المرئية، وقد قيل: بتعبير بليغ أن الشرقي يمتاز بحدة في النظر مدهشة، وفي الفهم والتحليل لمسألة واحدة فقط، وعندما ينتهي من هذه المسألة يستطيع أن يتناول سلسلة أخرى من المسائل بالطريقة نفسها، وقد تكون هذه المسائل متناقضة، ولكن هذا لا يزعجهم، وعندما يبني أنظمة، كما يفعل غالبًا، يكون ذلك بتناول مسألة، وينسج حولها كل شيء، وليس بتناول مسائل عديدة وبنائها معًا[3]. وقد فحص ماكدونالد حياة النبي ودوره من خلال هذه النظرة المرجعية، وحاول إجراء تحليل نفسي لحياة النبي ﷺ، وقسَّمها إلى ثلاث فترات: ففي الفترة الأولى من سنة ؟؟؟ إلى ٦١٠م. كان من المفترض أن النبي عانى من صدمة اليتم، ونتيجة لذلك كانت شخصيته غير مستقرة. وفي الفترة الثانية: التي تمتد من سنة ٦١٠ إلى ٦٢٢م كان من المفترض أنّ النبي رأى رؤى وسمع أصواتًا في الكهوف خارج مكة، وهذا مكَّنَ النَّبي من أن يستنتج أنه خليفة أنبياء العهد القديم، وأنَّ الله هو الذي اتصل به»[4]، وهكذا فالنبي لا يُعَدُّ دجالًا ولكن «حالة مرضية أصابته»[5]. وفي المرحلة الثالثة: من حياته التي تمتد من ٦٢٢ إلى ٦٣٢م. خضع محمد للإغراءات الدنيوية، وتميزت سنواته العشر في المدينة بانحدار أخلاقي[6]، ويعتقد ماكدونالد أنّ تسعة أعشار الإسلام مركّزٌ على

(1) D.B.Mac Donald. The Religious Attitude and life in Islam. Chicago: The university of Chicago Press, 1909, p. 4.
(2) Ibid., p. 31.
(3) D.B. Mac Donald, Whither Islam in, The Muslim World, Vol. 23, (January 1933), p.3.
(4) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, op. cit., p. 66.
(5) Ibid., p. 60.
(6) Ibid., p. 70-81.

العقيـدة منشغل بالحديث عن الله وصفاته، وهذا يعود في نظره إلى أمرين: أولهما الأهمية البالغة بالنسبة لمحمد عن فكرة إله، «وكما شرح ماكدونالد سابقًا أن العقل الشرقـي له بناء غريـب». وثانيهما إنَّ تطور العقيدة الإسلاميـة كان إلى حد كبير «محكومًـا ومتأثرًا بعقيدة الكنيسة اليونانيـة، وبخاصة العقيدة، كما صاغها يوحنا الدمشقـي»[1]، ويبـدو تأثر ماكدونالد بيوحنا الدمشقـي واضحًا، فبعد أن قدم كل هذه الافتراضات كان من السهل عليه أن يقول: إن القرآن كان تفسيرًا لأفكار النبي، وأن «هـذا هو الشكل الذي أفصحت عنه عقيـدة الذات الإلهية عن نفسها له، ومن الطبيعـي أن موقفه ومنهجـه استمرا في التطورات اللاحقـة»[2]، وشعر ماكدونالد أن المشكلـة في العـالم الإسلامي لم تكـن النصرانية ضد الإسلام، كمـا نظر إليها زويمـر، ولكن «هي مسألة دين ضـد لا دين»[3]، فالإسلام عند ماكدونالد كما ذكر سابقًا ضلال، وهرطقة للعقيدة اليهودية النصرانية، وهكذا فالمسلمون بحاجة إلى تصحيـح، وبذلـك فالهدف النهائي هو تدمـير الإسلام، وعدم السمـاح له بعرض نفسه كما يشاء.

وبالرغـم مـن أن بعض هؤلاء الأشخاص عاشوا في فـترة مبكرة من هذا القرن إلا أن أفكارهـم ظلـت مستمـرة في التأثـير في منصِّري العالم الغربـي، فقد افتتح معهد زويمر لتنصير المسلمين سنة ١٩٧٠م، في مدينة باسادنيا (Pasadena) بولاية كاليفورنيـا الأمريكية، ومنذ ذلك الحين، وهو يدرِّس ويدعو لأفكار زويمر، ويتلقاها المنصِّرون الذين سينطلقون فيما بعد إلى العالم الإسلامي.

ومركز دنكن ماكدونالد أقدم بكثير من معهد زويمر، ويعمل من معهد هارتفورد اللاهوتي في ولايـة كاندكت (Connecticut) بالولايات المتحـدة الأمريكية، ويلتزم هذان المعهدان في عملهما بآراء هذين المنصِّرين التزامًا تامًا، وتعكس أفكار هذين

(1) Ibid., p. 123.
(2) Ibid., p. 124.
(3) D.B.Mac Donald, Whither Islam, Op. cit., p. 5.

المُنَصِّرين فكر البعثات التنصيرية اليوم بالرغم من أن بعض المجموعات قد تصرح بها علنًا، وللنشاطات التنصيرية في البلاد الإسلامية هدفان:

أولهما: تحويل النشء المسلم إلى النصرانية، وفي هذا المجال لم يحقق التنصير نجاحًا كبيرًا.

أما الثاني: فإن خطة المنصِّرين أنه إذا كان المسلمون لا يمكن أن يصبحوا نصارى، فعندئذ يمكن علمنتهم، وبهذا لن يصبح المسلمون تهديدًا للتوسع الاستعماري والاستغلال، ومن أجل علمنة المسلمين فقد أخذ المنصِّرون على عاتقهم مهمة التعليم؛ حيث فتحوا عددًا من المدارس التنصيرية التي استورد إليها ليس فقط التعليم الغربي، بل التغريب أيضًا، فالحضارة الغربية هي المثال الذي يجب أن يُحْتَذى، ودَرَّبت مدارس البعثات الأولاد؛ ليكونوا متمكنين في لغة، وتاريخ، وآداب، وفكر المستعمرين، وكان من السهل عليهم أن يحصلوا على وظائف أفضل في البناء الإداري الذي أسسوه المستعمرون في المستعمرات، وكان من السهل أيضًا تأسيس نموذج علماني لحكومة تفصل الدين عن السياسة، وبهذه الطريقة عَلْمَنَ المنصِّرون المسلمين، ولم يكن سهلًا تمسيح المسلمين، ففي المجتمعات المسلمة ينظر إلى الشخص العلماني على أنه سيئ في حين أن المسلم الذي يتحول إلى الإسلام من النصرانية ينظر إليه بارتياح ورضاء.

وقد استخدم المنصِّرون عددًا من الوسائل لتنصير المسلمين، فبالنسبة للأفريقيين يكون التركيز على منح البركات من الله لنقطة اللقاء بين الإسلام والنصرانية[1]، أما بالنسبة للعرب فتستخدم وسيلة «الحاجة المحسوسة»؛ حيث يكون التركيز على «الحاجات الكونية»، والحاجات المبنية على القضايا الثقافية، والحاجة المبنية على الإسلام، والحاجة المبنية على التغريب[2]، فالطلاب المسلمون في بريطانيا تُسْتَغَلّ وَحْدَتُهم، فيقدَّمُ إليهم «الحب والصداقة»، و«كرم

(1) L.Lenning, Blessing in Mosque and Mission, Pasadena CA: William Carey Library, 1980.

(2) T.Matheny, Reaching the Arabs: A felt Need approach. Pasadena CA: William Carey Library, 1981.




الضيافة»لاجتذابهم[1]، ولكنه لم تنجح أي من هذه الوسائل؛ لأنه كما ذكر سابقًا ثمة تمييز بين من يولد نصرانيًا، أو يتحول إليها من الإسلام، فالأخير ينظر إليه بعين الريبة والشك، وثمة حاجز عرقي لا يمكن من قبولهم.

الاستنتاج:

ينظر العالم الإسلامي إلى المنصرين نظرة عدائية بسبب ارتباطهم بـ «التعريب»و«العلمنة»، ويقدم المارونيون في لبنان والأقباط في مصر أفضل الأمثلة على ذلك؛ لأنهم يربطون هويتهم بالغرب بدلًا من المسلمين اللبنانيين أو المصريين[2]، وتزداد هذه النظرة؛ لأن هؤلاء يعملون كوكلاء للتغريب فهم يحاولون هدم المجتمعات الإسلامية.

---

(1) Light on Islam: Reaching out to Muslim students in Britain. Leicester: Universities and Colleges Fellowship, 1988.

(٢) لعل أبرز دليل على هذا أن معظم الدعوات الهامة التي ظهرت في العالم العربي كان روادها من هؤلاء مثل الدعوة إلى القومية العربية، والدعوة إلى حزب البعث، والدعوة إلى العامية، ومن هؤلاء جورج أنطونيوس، وسعيد عقل، وجرجي زيدان، وجورج حبش، وقسطنطين زريق، ولويس عوض، وسلامة موسى .. وعداهم.





الفصل الخامس

العرقية والصور الجامدة


صراع الغرب مع الإسلام

عندمــا تُدَرَّسُ الآراء المتعصبة والعنصرية لأطفــال المدارس في بلد ما ضد بلد آخر، فإن ذلك يَحدُّ من التفاهم بين شعبي البلدين، مثل هذا التعليم ينتج عنه وضع الشعــوب الأخرى في صورة جامدة، وهذه الصور تُكَــوِّن تصورات عامة، وتصورات سابقــة في عقــول كل شعب تجاه الشعب الآخر، وقد تكون هــذه الآراء الجامدة لدى شعــب عــن شعب دولة أخرى غير موجــودة أصلًا بين أعــراق مختلفة في بلد واحد، وهــذه الآراء الجامدة تــؤدي إلى تكوين صورة «جامدة» في عقــول شباب شعب ما، ويتعجب الإنسان هل تم ذلك بسبب الجهل؟! ومع ذلك فقد أظهر الباحثون أن الجهل ربمــا لا يكون هو السبب الوحيد، ولكن العوامــل الأهم هي السيطرة السياسية التي مارسهــا الاستعمــار في القرون الماضية، فمثلًا: عندمــا استعمرت بريطانيا مناطق واسعــة في القارة الأفريقية استخدمت العنصرية؛ لتبريــر سيطرة الشعب الأبيض علــى الشعب الأسود، وحسب رأي جونز، فــإن «مفهوم السواد قد حُمِّل بمعانٍ حادة ... حيــث تَضَمَّن معنى أبيض، وأسود الطهارة والقــذارة، والعفة والذنب، الفضيلة والدنــاءة، الجمال والقبــح، الرحمة والشــر، الله والشيطــان»[1]، وأصبح احتلال أفريقيــا مشروعًا بسبب هذه الوصمات، وشبيه بهذا، فإن كتبًا أخرى ذكرت تبريرًا مفــاده أن «أفريقيا كانــت قبل الاحتلال صورة الأسود المتوحشــ المنفر»[2]، وكانت الحقيقــة أن أفريقيا «البربرية» كانت مجرد تبريــر؛ لاستغلال الثروات المعدنية في هذه الأرض وتجارة الرقيق.

لم يكــن هدف الآراء الجامــدة إيجاد الخط الفاصل بناء على اللون بين الحاكم والمحكــوم، ولكن عــددًا من الصفــات نُسِبَت إلى شعوب الدول غــير الغربية، وهي: صفات لا تُصَوِّر الحقيقة الاجتماعية، كما هي في الواقع، وكانت إحدى هذه الصفات

---

(1) Eldred Jones. Othello›s Countryman, Oxford University press, 1965. Quoted in D. Kuya, Racism in Children›s Books in Britain, in R. Priestwerk, ed. The Slant of the Pen, Geneva: World Council of Churches, 1980, p. 27.

(2) Quoted in Basil Davidson, Africa: History of a Continent London: Spring Books, 1972, Ibid., p. 32.



هي تفوق الأوروبيين مقابل النقص لدى غير الأوروبيين، وبررت هذه الآراء الجامدة الاحتلال الأوروبي؛ حيث أظهرت فيما بعد أن الأوروبيين قد جاؤوا إليهم بحضارة أرقى مما لديهم، وقد تم إجراء مسح للكتب الدراسية المستخدمة في المدارس، وسوف نَشرح كيف تُعرَض هذه الصور الجامدة عن الشعوب وعاداتها وأديانها؟

دراسات مسيحية من الولايات المتحدة الأمريكية:

استقصت الدراسات تَنَاوُلَ مناهج المدارس الثانوية الأمريكية للشرق الأوسط، وقد اعترفت هذه الدراسات بأن «الأتراك، والمصريين، والعرب هم أغلب المجموعات العرقية في الشرق الأوسط المرتبطة بصفات سلبية»[1].

قامت رابطة دراسات الشرق الأوسط (MESA) سنة ١٩٧٢م بتشكيل «لجنة صورة الشرق الأوسط في المدارس الثانوية»، وأظهرت نتائج الدراسة أن غالبية الكتب المدرسية «أخطأت في المحتوى، وأكدت استمرارية الصور الجامدة في النواحي السياسية والاجتماعية، وبَسَّطت أكثر مما هو مطلوب الموضوعات المعقدة، وذكرت النتائج بينما أهملت الأسباب، وقدمت حكمًا أخلاقيًا على تصرفات الأمم في هيئة تاريخ حقيقي»[2].

وأجريت دراسة تحليل المحتوى لست وثلاثين كتاب مدرسي في العلوم الاجتماعية المستخدمة في المدارس الابتدائية والثانوية في ولاية كاليفورنيا خلال السنة الأكاديمية ١٩٧٤م-١٩٧٥م، وكان تركيز هذه الكتب منصبًا على تصوير الشرق الأوسط على أنه المجتمع العربي البدوي، وكانت العبارات المرتبطة بهم هي: الجمل، والصحراء، والبدوي، وعُدَّ الغزو، والسلب، والحرب صفات متوارثة

(1) Samir Jarrar, The Treatment of Arabs in U.S.Social Studies Textbooks: Research Findings and Recommendations in Edmund Ghareeb (ed). Split Vision: the portrayal of Arabs in the American Media. Washington D.C. American-Arab Affairs Council, 1983, p. 383.

(2) W.Griswold, et. Al, The Image of Middle East in Secondary School Textbooks. New York: Middle East Studies Associations, 1975, p. 2. Also see: Ayad al-Qazzaz, Images of the Arabs in American Social Science Textbooks in Arabs in America (ed.) Baha Abu Laban and F.T.Zeady. Wilmette, III: The Medina University Press International, 1975, pp. 113-132.





في الحيــاة البدوية، واحتوت الكتب على كثير مــن المعلومات الخاطئة عن الإسلام؛ حيــث غالبًا ما يشار إليــه باسم «المُحَمَّديــة»، وهو تعبير استخدمــه المستشرقون، وكانــت النظــرة إلى موســى وعيســى (عليهما الســلام) أنَّهما رســولان أَوْحى الله إليهمــا الوصايا العشر، وأعطاهما المعجزات، ولكــن نبي الإسلام محمد ﷺ نُظر إليــه على أنه قائد قافلة، كان يسافــر جيئةً وذهابًا عبر الصحراء، «وفكر كثيرًا في الديــن»[1]، والتلميح هنا أنَّ الإسلام ليس موحًى به من الله، وثمة تركيز كبير على الصفة الحربية للإسلام: فالمسلمون «نشــروا عقيدتهم بالسيف»[2]، بينما اعتمد النصارى من جهة أخرى على الكتاب المقدس.

وقــد أكــدت منهجيــة أخــرى استمرارية هــذه الصفة، وهــي انتشــار الإسلام بالسيــف، وكيف أنَّ المسلمين خرجوا لغزو العــالم باسم الله؟ وكيف أن الجنة مليئة بالمحاربين المسلمين؟ وكيف تم فرض الإسلام على القبائل العربية بالسيف؟ وكيف أن المسلمــين أناســ يحبون الحرب؟ وكيــف أن السيف هو مفتاح الجنــة؟ وكيف أنَّ الإسلام دين محارب؟[3].

وعُــدَّ الــرقُ أمــرًا مقبــولاً في الإسلام، وصُــوِّرت الجنــة على أنها مــكان؛ حيث «النساء خادمات»[4]، وزعموا أنَّ القرآن قد عَلَّم المؤمنين أن «النساء ينبغي لهنَّ أنْ

---

(1) W.Gardner, The New World›s Foundation in the Old. Boston: Alyn and Bacon, 1964, p. 287.

(2) R.S.Yohe, Exploring Regions of the Eastern Hemisphere. Chicago: Follett, 1964, p. 287.

(3) See: T. Wallbank, et. Al., Living World History. Atlanta: Scott Foresman, 1964, H.H.Eibling, et. Al., Our Beginnings in the Old World. Scaramento. CA: State Department of Education. 1964, J.K. Batterworth, et. Al., Your Old World Past. Austin: Steck, 1961. T.D. Clark, et.al. America›s Old World Frontíes. Scaramento, CA: State Department of Education, 1964. G.S.Dawson, Our World. Lexington, M.A. Ginn, 1975. W.Cassidy, et. Al., Long Ago in the Old World. Columbus, Ohio: Charles Merrill, 1964.

(4) N.Platt, et. Al., Our World Through the Ages. Englewood Cliff›s, N.J: Prentice-Hall, 1967, p. 145.



يكُنَّ جوارٍ للرجال»[١]، والقرآن نفسه يحتوي على «أقوال الرسول»، ولن تكون هذه الكتب مكتملة لو لم تعط صورًا سلبية للشعب الإسلامي خلال الحروب الصليبية، فالأتراك نهبوا وعذبوا وقتلوا كثيرًا من النصارى، وباعوا آخرين عبيدًا، ورفضوا أن يأذنوا النصارى بزيارة الأماكن المقدسة، وكانوا باختصار «برابرة»، ومن فضول القول أن هذه الكتب المدرسية المستخدمة في المدارس الأمريكية لم تعزز معرفة الإسلام في عقول الشباب، بل على العكس أوجدت صورًا مشوهة له.

وظهرت دراستان أخريان سنة ١٩٧٥م حَلَّلت الأولى اثنين وعشرين كتابًا مدرسيًا، وأوضحت ما يأتي:

١- المصطلح «عرب»، و«ومسلمون» استخدما بمعنى واحد.

٢- ثمة اضطراب بين «الإسلام كدين»، و«طريقة للحياة».

٣- تفضيل إسرائيل ووجهات النظر الإسرائيلية على العرب ووجهات نظرهم[٢].

وتولت الدراسة الثانية، فحص ثلاثة وأربعين كتابًا تستخدم غالبًا في أربعة مجالات من العلوم الاجتماعية، وتاريخ العالم، والجغرافيا، والدراسات الاجتماعية، والديمقراطية الأمريكية. وأكدت هذه الكتب استمرارية الاسقاطات، والصور الجامدة والتعميمات غير المعقولة، وفقدان التوازن عند تقديم المادة[٣].

وأظهرت الدراسات التي أجريت عامي ١٩٧٩م – ١٩٨٠م على الكتب المدرسية المستخدمة في كاليفورنيا، ونبراسكا، وواشنطن العاصمة أن هذه الكتب عانت من العيوب نفسها التي وجدت في الدراسات التي نشرت سابقًا[٤]، وتبنت الرابطة

---

(1) W.Gardner, op. cit., p. 191.

(2) O, Perry, Treatment of the Middle East in American High School Textbooks. In Journal of Palestine Studies. Vol. IV, No. 3, April 1975, pp. 46-58.

(3) See: S.A. Jarter, Images of the Arabs in United States Secondary School Social Studies Textbooks. A Content Analysis and Unit Development. Unpublished Ph.D. dissertation. Florida State University, 1975.

(4) Ayad al-Qazzaz, Image Foundation and Textbooks in Edmund Ghareeb, op. cit., p. 372.

القومية للعرب الأمريكيين (NAAA) أيضًا دراسة في عام ١٩٨٠م، ووجدت الآتي:

١. تقاس الثقافة والتاريخ العربيين بالمعايير الغربية.
٢. المعلومات المقدمة في هذه الكتب غالبًا ما تكون قديمة وغير دقيقة.
٣. الآراء السلبية شائعة بالإضافة إلى استخدام لغة محمّلة بالقيم في الحديث حول الشرق الأوسط.
٤. محاباة إسرائيل حين الحديث عن الحرب العربية الإسرائيلية.
٥. عرض الإسلام بصورة سلبية[١].

دراسات مسحية من كندا:

توصلت الدراسات التي أجريت حول كتب العلوم الاجتماعية المدرسية في كندا إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها الدراسات حول الكتب الدراسية الأمريكية، وذلك من ناحية عرضها لمعلومات زائفة حول الشرق الأوسط[٢]، وقد أجريت إحدى هذه الدراسات سنة ١٩٧٢م، وذلك بتحليل المحتوى لأكثر من سبعين كتابًا مدرسيًا في العلوم الاجتماعية، ومقرر تدريسها في انتاريو (Ontario) من قبل وزارة التعليم في ولاية بروفنس (Provence)، وقد أظهرت الدراسة أن الأفكار الزائفة حول العرب منتشرة خلال هذه الكتب، فالعرب في هذه الكتب مغرمون بالغارة على القوافل على سبيل قضاء وقت الفراغ، كما أنها محببة إليهم، وتبالغ هذه الكتب في التأكيد على بداوتهم[٣]، وثمة زعمٌ: أن النبي منذ بدء الإسلام «ربما يكون قد سمع أفكارًا يهودية ونصرانية»[٤]، وعُدَّت الكعبة وزمزم أشياء تُعبَد لدى المسلمين[٥]، وذكرت

(1) See: National Association of Arab Americans› Treatment of the Arab World and Islam in Washington Metropolitan Area Junior and Senior Textbooks. Washington, D.C., 1980.
(2) L.M. Kenny. The Middle East in Canadian Social Science Textbooks in (ed.) Baha Abu Leban and F.T. Zeady, Arabs in America. Op. cit., pp. 133-147.
(3) W.G.Itardy, et. Al., Journey into the past. Toronto: McClelland and Steward, 1965, p. 321.
(4) Ibid., pp. 320-325.
(5) ibid., p. 321. Also see: E.Lavender, et. Al., A Thousand Ages. Toronto: Mc-Graw-Hill, 1962, p. 281.



أن رمضان هو شهر الحج[1]، ووُصف الذين قاموا بنشر الإسلام «بأنهم محاربو الإسلام المتوحشون المسعورون – نشروه بالسيف–، أما الذين واجهوا الحملات الصليبية: فهم ملحدون، وثنيون، وعرضت معركة تور (بلاط الشهداء) بصورة مثيرة مع المبالغة في شجاعة النصارى حينما أوقفوا توسع المسلمين في أوروبا، أما إسهامات الحضارة الإسلامية في ميادين الطب، والفلسفة، والرياضيات، وعلم الفلك، والتجارة، والفن، والعمارة، فقد قُلِّلَ من شأنها، وكانت الإشارة ضئيلة جدًّا لأسبانيا الإسلامية التي أسس فيها المسلمون مراكز تعليمية في كل من غرناطة، وطليطلة، وقرطبة، ولكن من جهة أخرى تناولت هذه الكتب الاستعمار الأوروبي على أنه لمصلحة الشرق الأوسط، فالسيطرة البريطانية على الدول الواقعة تحت الانتداب كانت لتقديم «التدريب على الاستقلال»، بينما صُوِّر اضطهاد الاستعماريين الفرنسيين على أنه «حزم وكفاءة وخير؛ لأن فرنسا كانت أساسًا تقوم بأعباء الرجل الأبيض»[2]، ووُصف القادة العرب من أمثال جمال عبد الناصر على أنهم «متهورون»لشرائهم السلاح من الكتلة الشرقية، ووصفت الحركات القومية في الشرق الأوسط على أنها «مثيرة للمشكلات»، وأعضاؤها «كارهون عنيفون للأجانب»[3]، وعلى النقيض من ذلك امتدحت الدراسة اليهود؛ لأنهم بنوا مجتمعًا في الصحراء، وكانوا أصحاب روح ريادية، «وبنوا مزارع خصيبة، وحدائق العنب في الأراضي الصحراوية المهجورة، والمستنقعات «عن طريق العمل الشاق، والعزم والتخطيط»[4]؛ لأنهم استطاعوا أن يحولوا الأرض القفر الفارغة إلى أمة متحضرة منتجة، ويفترض أن الإسرائيليين قد عانوا من المشاق، وجاءوا بقليل من المال، ولكنهم مع ذلك حولوا الصحراء إلى دولة حديثة، وطبعًا فإنَّ التلميح الخفي في هذا كله هو تبرير قيام دولة إسرائيل.

---

(1) E.Lavender, ibid., p. 286.

(2) J.Gwyne-Timothy, Quest for Democracy: Revolution, Reaction and Conflict. Toronto: McClelland and Steward, 1970, p. 103.

(3) L.M.Kenny, Op.cit., p. 143.

(4) Ayad al-Qazzaz, Op. cit., p. 119.

وعنـد المقارنـة نجد أنَّـه ليس ثمة شك أنـه تم إبراز اليهود بصـورة أفضل من العرب، فادعاءات اليهود في فلسطين لها مبرراتها؛ لأنها بلدهم من قديم الزمان[١]، والعرب هم المعتدون؛ لأنهم «مصممون على تدميرها»[٢]، وبينما قام اليهود «ببدحر المعتدي»[٣] نجد صمتًا تامًا حول الوحشية التي ارتكبها الإرهابيون الصهاينة، وأي حقيقـة يمكن أن تُخَـرِّب صورة إسرائيل لابد من حذفها، وعلـى العكس يُعَدُّ العرب السبـب الأساسي للمشـكلات التي ابتُلِيَ بهـا الشرق الأوسـط[٤]، وأن عداوتهم... تُعقِّـد الأمور في الشرق الأوسط[٥]. ويضـاف أيضًا إلى الخلاف العربي الإسرائيلي عنصر الغَيْرة؛ حيث يُعَدُّ نموذج إسرائيل في «الديمقراطية» سببًا لقلق بعض الدول العربية؛ لأن حكّامها يخافون من الجماهير أن تتعلم من المثال الذي وضعه اليهود، وربمـا يطلبون أن يكون لهم مكانة أكبر في إدارة الحكومة، وهكذا فإن الحكام كانوا معاديـن لإسرائيل[٦]، وقد أدت هـذه المقارنات إلى مواقف مؤثـرة لصالح اليهود، بينما وصفـت العرب بأنهم أتباع الإسلام، وقامت دراسـة أخرى بفحص الكتابات التي صدرت عن الكنائـس البروتستانتية التي تمثل وكالة أنباء لأتباعها في مدارس الأحـد[٧]، ومـرة أخـرى نجد الصـور السلبية المعروضـة للإسـلام، فالإسلام هو هدفهـم الأول، ويأتـي بعده الحروب الصليبيـة، ثم الشعوب العربيـة، ومرة أخرى أطلقت الكنيسـة الكندية المتحدة على المسلمين اسـم «المُحَمَّدِيِّين» الذين دعوا إلى «إلـه يطلقون عليه الله، وإلى محمـد الذي يزعمون أنَّه نبيـه»[٨]، ومن الواضح أنَّ هـذا، يعني: أنَّ إلـه النصارى، وإله المسلمين مختلفان، وهذا يلقي شكوكًا حول نبوَّة

(1) S.W.McKay, The Communides we build, Chicage: Pollet, 1973, p. 164.

(2) L.C.Wood, et.al., America: Its People and Values. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975, p. 761.

(3) E.R.Kolevzon, The Afro-Asian World, Boston: Allyn and Bacon, 1969, p. 552.

(4) T.W.Wallbank, et. Al., Living World History. Atlanta: Scontt, Foresman, 1964, p. 721.

(5) N.Platt, Op. cit., p. 689.

(6) E.R.Kolevzon, Op. cit., p. 553.

(7) Sharon Abu-Leban, Stereotypes of Middle East Peoples: An Analyzing Church School Curicula in Arabs in America, Op. cit., pp. 149-169.

(8) I.S.Clark, The Mystery Continues, Junior 3. Toronto: The United Church Publishing House, 1966, p. 52.



محمد ﷺ، ويُعرِّف المسلم في كتاب آخر صدر عن الكنيسة الميثودستية المتحدة (United Methodist) أنه: «تابع لمحمد الذي أوجد دينًا يطلق عليه الإسلام»[1]، ومن الواضح أن كلا الرأيين متفقان ضد الإسلام.

أما بالنسبة للحروب الصليبية، فالحديث فيها يحتوي على الكيفية التي ذبح فيها المسلمون النصارى، ولكن لا يذكر شيء عن آلاف المسلمين الذين ذبحوا بوحشية، ويوجه اللوم للمسلمين في الحروب الصليبية، وأن النصارى كانوا فقط يردون على الاضطهاد العنيف الذي تعرض له النصارى»[2]، ومرة أخرى وصف العرب الذين يعيشون في الشرق الأوسط على أنهم بدو، فالتاريخ لم يقدِّم إلا جانبًا واحدًا لتصوير الشخصية.

دراسات مسحية من ألمانيا الغربية:

نشرت دراسة مسيحية بعنوان: (صورة الإسلام في الكتب الدراسية الألمانية) تضمَّنت مسحًا لعدد من الكتب المنهجية في المدارس الابتدائية والثانوية، ووُجد أنَّ هذه الكتب تحتوي معلومات خاطئة[3]، اعتمد الباحث على ثلاث متغيرات للتقويم من أجل الدقة، والكفاية، والحساسية، وبهذا الأسلوب تم الفحص الدقيق للحالات، والأحداث من خلال تحليل المحتوى، وذلك عن طريق التأكد هل كان التشويه متعمدًا أو غير متعمد في المادة التاريخية والجغرافية؟ وتمت دراسة الموضوع من خلال المتغير الثاني (الكفاية) للتعرف عمّا إذا كانت مبنيَّة على آراء متوازنة بخصوص الإسلام، وتعني الحساسية القدرة على إدراك الجوانب المهمة في الإسلام، وكانت خطة هذه الدراسة تعني بتحليل محتوى الكتب الدراسية في المدارس الألمانية، وقد وجد الباحث عيوبًا محددة في عدة جوانب:

أولا: قُدِّمت صورة مشوهة عن عقيدة القضاء، والقدر في الإسلام.

---

(1) Let it Happen. V-VI Student. Nashville, Tenn: Graded Press, 1974, p. 76.

(2) I.S. Clarke, Op. Cit., p. 62.

(3) Udo Tworuschka, The Image of Islam in German School, Textbooks, Birmingham: Centre for the Study of Islam and Christian Muslim Relations, 1986.





ثانيًا: لم تعترف بالقرآن ككتاب موحى به، بل هو كتاب كتب فيه «محمد أفكاره حول الله».

ثالثًا: هناك تلميحات مهينة حول حياة الرسول ﷺ تسود هذه الكتب، فقد وُصِف النبي بطريقة ساخرة على أنه «سائق جمل»، فالمؤلفون يفتقدون صفة التعاطف، أو الحلم مع المفهوم الإسلامي لمحمد»[1]، وصُوِّر زواج النبي الأول على أنه حركة خُطِّطَ لها بين شخص تافه والثراء، وعُدَّت الهجرة على أنها عمل «متهور وهروب متعجل»، والحديث عن الفترة المكية على أنه نقيض الفترة المدنية؛ حيث صُوِّر النبي في المدينة على أنه «وحش ومخطط ماهر وسياسي محتال»[2] بالإضافة إلى ذلك، فثمة معان مغلوطة في هذه الكتب، فمثلًا يُسمَّى الجهاد بـ«الحرب المقدسة»، وصوِّر الإسلام على أنه «دين بدائي» يأمر الفتيات في المدارس بارتداء غطاء الرأس، ويحرِّم على أتباعه أن يأكلوا لحم الخنزير، والأئمة أناس متطرفون، بينما يُنظر إلى الأتراك المهاجرين على أنَّهم يصلون في قاعات دكاكين حقيرة»[3].

وثمة تشويهات خطيرة تلك التي تحتويها كتب التاريخ، فهذه الكتب لا تحتوي فقط «مقولات معيبة»، ولكن أيضًا حذفًا لحقائق تاريخية جوهرية، وأهم من ذلك وجود تفسيرات وآراء مضللة»[4]، وكما ذكرنا آنفًا يُنظر إلى الفتوحات الإسلامية، على أنها «عمل وحشي»، وفي محاولات من المسلمين لتبريرها يورد المسلمون عبارات مثل: «يجب أن ينتشر الإسلام بالنار، والسيف وفقًا لإرادة محمد»[5]، أما الفترات ما بين القرنين الثاني عشر، والتاسع عشر، فإن عددًا كبيرًا من الكتب لم يتناولها إلا حينما تكون ثمة مصالح لأوروبا، وتحتوي هذه الكتب على اتجاه آخر هو

(1) Ibid., p. 10.
(2) Ibid., p. 12.
(3) Ibid., p. 14.
(4) Ibid., p. 16.
(5) Ibid., p. 16.



المبالغة في التبسيط للحقائق، والعلاقات عندما يتعلق الأمر بالتاريخ الإسلامي، والدين الإسلامي[1]. وثمة اتجاهات أخرى تُظهر بأن الإسلام يفهم على أنه «دين توحيدي، وليس فيه تنوع داخلي يستحق الذكر»[2]. ويعتبر التاريخ الإسلامي جامدًا في مقابل حيوي، ويقدم الباحث ملاحظات مهمة، وهي: أنه «لا أحد يستطيع بالطبع أن يفرض على كاتب بروتستانتي، أو أستاذ أن يؤمن بالوحي القرآني، ولكن يجب على كل كاتب أن يحاول أن يكتب عنه أو يدرسه حتى لا يكون في ذلك إيذاء للمسلمين»[3]. وتقدم الدراسة أيضًا صورة سلبية حول كيفية عرض الإسلام في الكتب المنهجية في المدارس الألمانية الغربية.

دراسة مسحية للمملكة المتحدة:

قدم شريفي في دراسته الممتازة: (تقويم الكتب المنهجية حول حياة النبي محمد المستخدمة في المدارس البريطانية) عدة ملاحظات وجيهة يفضح فيها المعلومات الخاطئة المتفشية في مثل هذه الكتب[4]. وقد أشار شريفي إلى عدد من الحقائق المهمة:

أولاً: هناك افتقاد للموضوعية؛ حيث تفضل آراء المستشرقين على المصادر الأصلية عند الكتابة عن الإسلام، وأن الحديث يعد في نظرهم «لا قيمة له كمصدر تاريخي»[5].

ثانيًا: لا تعد العقيدة الإسلامية عندهم وحيًا، بل هي صورة مستعارة من المصادر النصرانية واليهودية.

---

(1) Ibid., p. 18.
(2) Ibid., p. 19.
(3) Ibid., p. 4.
(4) Hadi Sharifi, «An Assessment of text books on the life of Prophet Muhammad used in British schools». In Muslim Educational Quarterly, Vol. 3, no. 4, 1986, pp. 11-29.
(5) Ibid., p. 15.

ثالثًا: لم تُفهم ظاهـرة النبوة فهمًـا صحيحًا، بل استخدمـت لإلقاء المطاعن الكاذبـة على حياة النبـي محمد، وأشـارت دراسة أخرى إلى العيـوب الموجودة في الكتـب التـي يستخدمها التلاميذ[1]، فقـد أبرز الكاتب كيـف أن التشويه واضح في هـذه الكتب في موضوع حياة النبي محمد ﷺ وفي القرآن؟[2]، وتؤكد دراسة أخرى حول الكتب المنهجية المستخدمة في المدارس هذه النظرة[3]، فما زال مؤلفون آخرون يستخدمـون تعبـير «المُحمدية» بدلًا من الإسلام، ويذكر بـيرك (Burk) أنه توجد مقارنـات زائفة بين النصرانيـة والإسلام، مثلًا: القرآن هـو إنجيل المسلمين، وقد اكتشـف بيرك أخطاء تاريخية وواقعية، ومثال ذلـك: أن غنائم الحرب هي السبب الوحيد الذي جذب أهل المدينة؛ لينضموا إلى الرسول[4].

الاستنتاج:

لقـد أظهرت الدراسـات المَسْحيَّـة السابقة كيـف يتم عرض صـورة زائفة عن الإسلام والمسلمين؟ وبالرغم من أن الاستعمار قد ذوي إلا أن التفكير الاستعماري، والنظـرة الاستعمارية ما يزالان راسخان في معاهد الغرب، ومن أجل أن يطيل أمد آرائـه عمـد الغرب إلى الكتب المدرسيـة، وقصص الأطفال التـي قامت بدورها في السيطرة على عقول الشباب من خلال معلومات ضد الإسلام، وبناء على ذلك فمن الواضح جدًا أنه من خلال العنصرية، والأيديولوجية العنصرية يتم السيطرة على نظـام التعليم الغربي، وقد بدأت تظهر دراسات تتحدى الاتجاه الأيديولوجي لنظام التعليـم البريطاني[5]، ولكن ثمة حاجة إلى مزيد من الدراسات؛ لإبطال الاستعمار من نظـام التعليم البريطـاني، وكذلك فهناك حاجـة ماسة إلى دراسـات شبيهة؛ لتحدي الصورة الزائفة المفترضة للإسلام في الغرب عمومًا.

---

(1) Mary Hayward, Books for Pubil Use. Muslim Educational Quarterly, Ibid., pp. 52-65.

(2) Ibid., p. 60.

(3) D.MBurke, «Analysis of School Textbooks on Islam». In Muslim Educational Quarterly, Ibid., pp. 75-100. Ibid., p. 60.

(4) Ibid., p. 80.

(5) Amon Saakana and A.Pearse, Towards the Decolonization of the British Educational System. London: Karnak House, 1986., p. 9.





الفصل السادس

علم الاجتماع ونظريات التطور


صراع الغرب مع الإسلام

نظرًا لأن الدراسات الاجتماعية لم تنل اهتمامًا كافيًا خلال الحقبة الاستعمارية، لذلك اتجه الاستعمار للإفادة من نتائج أبحاث الاستشراق، وعلماء الأنثروبولوجي[١] لإظهار سيطرتهم السياسية، واستغلالهم الاقتصادي للبلاد الإسلامية بالمظهر الشرعي، ولكن وضعت قواعد علوم اجتماعية جديدة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هذه العلوم – علم الإنسان، وعلم الاجتماع – ساعدت الاستعماريين في تعزيز سيطرتهم على المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، فبينما حاول الاستشراق التشكيك في الإسلام مباشرة، فإن العلوم الاجتماعية حاولت تدمير النظام الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية، واستبداله بأفكار علمانية غربية، لقد كان نوعًا من الهجوم الماكر جدًا.

كان علم الأنثروبولوجي أول العلوم الاجتماعية، ويعد حقًا «ابن الإمبريالية»[٢]، فقد ساعدت نتائجه الإدارة الاستعمارية، وكذلك الآخرين – مثل التنصير – في فهم عادات الشعوب التي حكموها، وأساليب حياتها، فقد أصبح علم الأنثروبولوجي الاجتماعي «مهمًا للإدارة الاستعمارية في سياق الحكم القسري المباشر، وفي سياق اتجاه الإصلاح من أعلى»[٣]، لم يكن الاستعماريون على علم بالثقافات المختلفة للشعوب الأخرى، وثقافة الشعوب غير الغربية يختلف بعضها عن بعض، كما هي مختلفة عن ثقافة حكامهم الجدد، وتولى علماء الأنثروبولوجي

(١) الأنثروبولوجي: هو علم الإنسان والمسلمون أسبق في دراساتهم للإنسان حيث نزلت سورة مريم في القرآن باسم: «سورة الإنسان»، بالإضافة إلى توجيه القرآن الكريم للمسلمين لذلك، ومن الكتب الإسلامية الرائدة في هذا المجال – على سبيل المثال – كتاب: «تفصيل النشأتين» للفخر الرازي، وقد أبقيت على المصطلح الغربي؛ لأنه ليس العلم الحقيقي، بل هو العلم الذي أفاد الاستعمار، والإمبريالية في سيطرتهم على الشعوب غير الغربية. (المترجم).

(2) See: M.Gough, «Anthropology: Child of Imperialism». In Monthly Review, April 1968.

(3) S.Feuchtwang. The Colonial Formation of British Social Anthropology, in T. Asad (ed.) Anthropology and the Colonial Encounter. London: Ithaca. Press, 1975, p. 93.



دراسة ثقافات الشعوب غير الغربية، وكانت المعلومات المقدمة من قبلهم ضرورية وأساسية للاستعماريين، وكلما ازداد فهم الاستعماريين لثقافة المحكومين كلما زاد فهمهم لنقاط القوة والضعف، وبالتالي تسهل سيطرتهم على الشعب، وهكذا فلم يكن الدافع لدراسة الشعوب غير الغربية إنتاج المعرفة لذات المعرفة، ولكن لتزويد الاستعماريين بوسائل لاستغلال الأمم غير الغربية، وكان التمويل جاهزًا لإعداد البحوث، فأجريت العديد من الدراسات عن آسيا، وأفريقيا، والشرق الأوسط تحت ستار الموضوعية الأكاديمية، ولكن كما لاحظ طلال أسد «من الجدير بالملاحظة أنه لا يعرف عن أحد من علماء الأنثربولوجي الأوروبيين أنه مال إلى الثقافة التابعة التي درسها»[1]، فالموضوعية بالتالي أسطورة استخدمت لتكريس نتائج بحوث الأنثربولوجي.

قدم علم الأنثربولوجي للاستعمار مناهج واقعية حول كيفية نقل التغيرات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية من الغالبين إلى أتباعهم، فقد ابتدع الأنثربولوجي نماذج نظرية مناسبة تحت عنوان: «البنائية العملية»، وقد مارست هذه النظرية تأثيرًا أكاديميًا قويًا من خلال كتابات علماء الأنثربولوجي، وعلماء الاجتماع من أمثال مالينووسكي (Malinowiski)، وبارسون (Parson)، وأدخلت مناهج نظرية للتغيير السياسي في المجتمعات غير الغربية، وأشارت نظرية «البنائية العملية» إلى أن كل مجتمع يحتوي على هياكل مستنبطة وفقًا لتاريخ الشعب وتقاليده، وتقوم هذه الهياكل بمهمات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ولابد من تغيير الهياكل، أو هدمها، أو تعديلها من أجل تغيير أي مجتمع حتى يصبح ممكنًا تغيير مهماته آليًا، وقد استغل المستعمرون هذا إلى أبعد الحدود من خلال الإكراه، والاستيلاء، والمفاوضة، والإقناع، والتعليم، وأقاموا هياكل سياسية، واقتصادية جديدة في المجتمعات المستعمرة.

---

(1) T.Asad. introduction, in T.Asad (ed.) Anthropology and the Colonial Encounter, Ibid., p. 17.

واستخدم الاستعماريون مفاهيم «العرقية»، و«الدين»، و«الثقافة» استخدامًا جيدًا من الناحية السياسية، فلم يضطروا للدخول في معارك مع المجموعات الخاضعة، ولكنهم حققوا أهدافهم بضرب مجموعة عرقية بأخرى، ويلاحظ أن المجموعة التي ساعدها الاستعمار كانت متعاونة معه، فمثلًا كان من السهل إثارة الهندوس والمسلمين في شبه القارة الهندية بعضهما ضد بعض من الناحية الدينية، وعندما فتح المستعمرون، والمنصِّرون المدارس المختلفة، أو الكليات والجامعات في البلاد الإسلامية أُدْخل تدريس مادة العلوم السياسية، وبذلك تم زرع المفاهيم السياسية الغربية، وكلها علمانية؛ إذ كانت تتكون من الأفكار السياسية كالدستورية، والديمقراطية، والبرلمانات، والأحزاب السياسية، والاشتراكية، والقومية... الخ.

ولو تطرقنا إلى مجال الاقتصاد؛ لوجدنا أن المستعمرات قدمت للمستعمرين أسواقًا استهلاكية في الحال، فقد أُخِذَت المواد الخام كالقطن والتبغ من المستعمرات، وصُنِّعت في الغرب؛ لتصبح قماشًا وسجائر، ثم بيعت هذه المنتجات في الدول المستعمرة، وقد طُبِّقت المبادئ نفسها على نطاق واسع بعد الحرب عندما أُسِّست المؤسسات ذات الجنسيات المتعددة كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي لإعطاء هذه الدول من حيث انتهى الاستعمار القروض، وإجبارهم على الاستدانة، لقد أصبح كل العالم غير الغربي -بغض النظر عن كونه كان مستعمرًا أم لا- خاضعًا للنظام الاقتصادي الغربي، وفُرِضت عليه أزمات الديون التي ما تزال هذه الدول تواجهها إلى اليوم[1]، وفتح ازدهار البترول في الشرق الأوسط أسواقًا جديدة، وبيعت التكنولوجيا، و«التصنيع» معلبة ببلايين الدولارات، وقد استخدمت ثروات النفط لدفع قيمة هذه المعلبات دون معرفة طريقة تصنيعها حتى إذا طرأ عليها عطل، فإن النظام كله يحتاج إلى استبدال.

(1) See: C.C. Carvounis, The Debt Dilemma of Developing countries, London: The Aldwych Press, 1984.



وابتكرت مفاهيم جديدة؛ لتبرير هذا الاستغلال الاقتصادي، فقد أوجدت العلوم الاجتماعية الحجة من أجل «التطور الاقتصادي»، و«التطور الاجتماعي»للدول النامية، ومرت العلوم الاجتماعية عندئذ بتغيرات سريعة، واستبدل «الاستشراق»الاستعماري، وعلم الأنثروبولوجي بـ«الدراسات الإقليمية»، حل هذا الفرع المعرفي الجديد المسمى –مثلًا- بالدراسات الشرق أوسطية محل الاستشراق؛ حيث ظهرت في أمريكا الشمالية بعد الحرب العالمية الثانية[1]، وفي الوقت الذي أخذت فيه دول الإمبراطورية الاستعمارية الأوروبية تتحرر من العبودية، وتحصل على استقلالها بدأت الولايات المتحدة الأمريكية توسع دائرة نفوذها في تلك المناطق؛ حيث أصبح ثمة فراغ أوجده كل من الاستعماريين البريطاني والفرنسي السابقين، وقامت الإمبريالية الأمريكية بغارات على الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وجنوب غرب آسيا، ومنطقة الخليج، واحتاجت الإمبريالية الأمريكية إلى دراسات الشرق الأوسط، كما احتاج الاستعمار من قبل إلى الاستشراق؛ ليجيز تصرفاته بالإضافة إلى تزويده بمعلومات عن المنطقة، وقد برزت مجموعات جديدة من خبراء الشرق الأوسط مستعدة؛ لتقديم خدماتها للحكومة، وذلك من خلال المراكز المتعددة التي فتحت من أجل التحليل السياسي، والاقتصادي، والتخطيطي للدول الإسلامية، هذا العلم الذي أطلق عليه الدراسات الإقليمية ابتكر للمصلحة السياسية، وكما يقول أحد المختصين: إن «الدافع الأساسي في تطوير الدراسات الإقليمية في الولايات المتحدة الأمريكية كان سياسيًا»[2]، وكان «الدافع السياسي الأساسي في الدراسات الإقليمية كسب النفوذ، ومحاربة القوى

(١) أعدت لجنة منبثقة عن ندوة الشباب الإسلامي في طرابلس بليبيا سنة ١٩٧٣م تحليلًا نقديًا للدراسات الإسلامية في جامعات أمريكا الشمالية، وكانت هذه اللجنة برئاسة البروفسور الحاج تعليم علي (T.B. Irving)، وتم تحديثها عام ١٩٧٥مز، وقد قمت بترجمتها إلى العربية، وهي دراسة جادة رصينة للدراسات الإسلامية من حيث عمقها ونتائجها.

(2) Leonard Binder, Area Studies: A Critical Reassessment in the study of the Middle East (ed.) Binder. New York: John Wiley&Sons, 1976, p. I.





المعادية في هذه المناطق»[1]، وتختلف الدراسات الإقليمية عن الاستشراق في أنها اعتمدت «على فكرة أساسية واحدة، وهي أن هدف هذه الدراسات الإقليمية هو أن المعرفة الحقيقية ممكنة فقط حول الأشياء الموجودة بينما المناهج، والنظريات أمور تجريدية تتطلب ملاحظات، وتقدم التفسيرات وفقًا لتصنيف غير تجريبي»[2]، وقد استطاع علماء الاجتماع الإفادة من هذا الأسلوب، ويمكن له أن يدير نفسه؛ ليناسب المصالح الخاصة بالباحثين، وكان السؤال المطروح عند علماء الاجتماع الغربيين هو: إلى أي حد يمكن للعالم غير الغربي أن يصبح متطورًا أو متغربًا؟

تعهد عدد من المعاهد، والمراكز، والمؤسسات، والمنظمات بتقديم هذه الخدمة السياسية، فقد أُسِّس معهد الشرق الأوسط سنة ١٩٤٦م في واشنطن «من أجل أن ينمّي الاهتمام بين الشعب الأمريكي في الشرق الأوسط»، وأن يقدم «معلومات دقيقة وموضوعية» عن هذه المنطقة[3]، وكان البحث الذي تولى المعهد القيام به مرتبطًا بالسياسة، ومؤيدًا لسياسات الحكومة في الشرق الأوسط، وفي أوائل الخمسينيات من هذا القرن أُلِّف مجلس بحوث العلوم الاجتماعية لجنة للشرق الأدنى والأوسط؛ لتعمل مع المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية على تمويل، وملاحظة البحث حول الشرق الأوسط، وأُسِّسَت في أواسط الستينات من هذا القرن رابطة دراسات الشرق الأوسط (MESA)؛ لتشجيع البحث والتعاون بين الأشخاص والمنظمات المهتمة بدراسة الشرق الأوسط، فأسست شبكة من العلماء في كل أنحاء العالم لإظهار المنظور المؤيد لأمريكا من خلال الكتب والمجلات[4].

---

(1) Ibid., p. 2.

(2) Ibid., p. 13.

(3) The Middle East Journal. Washington DC: The Middle East Institute. Statement Printed on the last page of every issue.

(٤) لهذه الرابطة دورية خاصة بها، كما إنها تقوم بإصدار عدد من المطبوعات من بينها دليل للباحثين الأعضاء فيها في جميع أنحاء العالم مع تخصصاتهم بالإضافة إلى عقد الندوات، والمؤتمرات المتخصصة.



وثمة مستخدم آخر رئيسي للتحليل الأكاديمي السياسي تمثل في الجيش الأمريكي، حيث إن اهتماماته، ونشاطاته، وتدخله في العالم الإسلامي كانت واضحة قبل الحرب العالمية الثانية، فتولت إدارة برامج التدريب الخاص في الجيش بإنشاء برامج تدريب على اللغات والدراسات الإقليمية في خمس وخمسين جامعة، بينما بدأت برامج تدريب للشئون المدنية في عشر جامعات أخرى[1]، وبالرغم من أن معظم هذه البرامج قد أوقفت في نهاية الحرب إلا أن الاستشراق كان يستبدل ببطء بالفرع المعرفي الجديد، وبعد الحرب أصبحت «المصالح الأمريكية الاقتصادية والسياسية قد ترسخت مما جعل تطوير الخبرة الفكرية لحماية هذه المصالح، وتقويتها أمرًا ضروريًا، ولا يمكن أن تترك لحفنة من المستشرقين»[2]، وركز مثل هذا الأسلوب الواقعي على الدراسات الوصفية لمناطق متعددة من العالم.

وتولت المراكز التي تعهدت بتلبية احتياجات الأمن القومي الهيمنة في الميادين الأكاديمية، وهذه المراكز هي: مركز الشئون الدولية (هارفرد)، ومركز الدراسات الدولية (برنستون)، ومركز دراسة السياسة الخارجية والحربية (شيكاغو)، ومعهد الدراسات الدولية (بيركلي)، وقامت هذه المراكز بأداء دور رئيسي في سياسة المصالح الأمريكية في العالم غير الغربي، وأبدى أحد خبراء الشرق الأوسط رضاه حول التطور الذي تم في الدراسات الإقليمية[3]، وبرز نظام من البرامج ينسجم مع هذه الدراسات، كما قامت مؤسسات من مثل كارنيجي (Carnegie)، وروكفلر، ومؤسسة فورد بتمويل مثل هذه البحوث[4].

(1) KJ.Milenberger, The Federal Government and the Universities. The Annals of the American Academy of political and Social Science, Vol. 356, November, 1964, p. 24.

(2) Middle East Studies Network. Washington DC: Middle East Research and Information project (MERIP), No. 38, 1975, p. 4.

(3) Manfred Halpern, «Middle East Studies: A Review of the State of the Field with a few examples». Journal of World politics, Vol. XV, 1962, pp. 118-22.

(4) MERIP Report. No. 38, p. 10.




ولما كانت كل من وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع الأمريكتين المستفيدتين الرئيسيتين من هذه المعلومات حول العالم الإسلامي، فقد فقدمتا الملايين من الدولارات لمراكز البحوث التي نذكر عددًا قليلًا منها، مثل مؤسسة راند (Rand)، ومعهد التحليل الدفاعي، مركز التحليل للبحرية، ومكتب بحوث الموارد البشرية، ومركز البحوث في الأنظمة الاجتماعية، وقد تم تمويل دراسة هالبرن المشهورة (Halpern) من قبل سلاح الجو الأمريكي سنة ١٩٦٣م[١]، كما موّلت وزارتا الخارجية، والدفاع العقود لإجراء البحوث لدى العديد من المنظمات والأفراد.

لم تكن أمريكا هي القاعدة الوحيدة التي انطلق منها نظام شبكة دراسات الشرق الأوسط، فقد فُتحت مراكز بحوث في المعاهد التعليمية الأجنبية من أجل تقديم المعلومات، ووسائل التدريب الميداني للعلماء الأمريكيين، وأحد هذه المعاهد هي الجامعة الأمريكية في بيروت التي تأسست أصلًا من قبل المنصّرين، ولكنها خدمت فيما بعد مصالح الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط بيد أنها لم تكن كافية لمواجهة كل احتياجات المنطقة، لذلك أضيف إليها الجامعة الأمريكية في القاهرة، وواصل كل من مركز البحوث الأمريكي في القاهرة، وكذلك المعاهد الأمريكية في تركيا، والباكستان خدمة المصالح الإمبريالية الأمريكية، وقد صدر كتاب لآصف حسين بعنوان (الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل - سياسة العلاقات الخاصة)، ونشرته جامعة القائد الأعظم ينتقد فيه النفاق المفتوح في صداقة الولايات المتحدة نحو الدول الإسلامية، وقد منعت الحكومة الباكستانية تداول هذا الكتاب؛ لأنه يضر بالعلاقات بين الولايات المتحدة والباكستان، وبهذه الطريقة حتى الدراسات المعادية لأمريكا يتم حظرها[٢].

---

(١) دراسة هالبرن هي: (سياسات التغير الاجتماعي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا).
Manfred Halpern, The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa. Princeton: Princeton University Press. 4th Printing 1907.

(2) Asaf Hussain, The United Stated and Israel: Politics of the Special Relationship. Islamabad: Quaid-e-Azam University, 1985.



لقد لُخِّصت طبيعة البحوث التي أجريت في أمريكا بذكاء على أنها «على الأصح أداة للإمبريالية، وليست عملًا معرفيًا موضوعيًا، وهي بالأحرى أداة للسيطرة على شعوب الشرق الأوسط أكثر منها أداة لتحرير هذه الشعوب من خلال فهم الذات والمعرفة، فالفرص المتاحة لإجراء البحوث التي تخدم شعوب المنطقة بدلا من مصالح الولايات المتحدة محدودة»[1]، وفي مثل هذه الحالة فإن الدراسات الإسلامية التي صدرت أدت إلى كثير من التشويه، وكما ذكر مراقب آخر بأن هذه الدراسات «تكون مصحوبة غالبًا بانطباعات سلبية تجاه العقيدة الإسلامية والذين يؤمنون بها»[2]، وهذه الانطباعات السلبية تعكس مرة أخرى التفكير النصراني المتعصب والاستشراقي.

ابتكرت العلوم الاجتماعية مصطلح «التحديث» بناء على التطور «التقني»، و«المادي» للحضارة الغربية، ويعرف هذا المصطلح بأنه «العملية التي تتلاءم فيها المؤسسات التي نشأت تاريخيًا مع المهمات المتغيرة بسرعة التي تعكس زيادة ليس لها سابق في علم الإنسان تسمح بسيطرته على بيئته، وكانت مصاحبة للثورة العلمية»[3]، وقام علماء الاجتماع بابتكار التصنيف ثنائي التقسيم بناء على هذه النظريات: فالمجتمعات الغربية صنفت على أنها «حديثة» بينما المجتمعات غير الغربية صنفت على أنها «تقليدية»، وكانت النظرة إلى التقاليد، والتحديث على أنهما قطبان متبادلان، فالمجتمع التقليدي منسوب إلى الأدوار المسهبة، والقيم الأحادية، والتوجه الجماعي، وسيطرة العاطفة، بينما المجتمع الغربي صاحب الإنجازات، والأدوار المحددة، والقيم الكونية، والاهتمام بالذات، والحياد العاطفي، وهذه المجتمعات غير الغربية التي قبلت هذا التصنيف تعد في المرحلة «الانتقالية» باتجاه «التحديث»، أما وسيلة هذا الانتقال، فهو المسلم المستغرب الذي يعدُّ «مفتاحًا لتغيير الشرق الأوسط، فهم اليوم في الممر مما كانوا عليه يومًا

(1) MERIP Report. No, 38, Op. cit., p. 20.

(2) Charles J.Adams, The Development of Islamic Studies in Canada. (ed.) by E.H.Waugh, et.al. The Muslim Community in North America. Edinonton: The University of Alberta Press, 1983, p. 195.

(3) C.E.Black, the Dynamics of Modernization. New York: Harper&Row, 1966, p. 8.

مـا إلى الوضع الذي سيصبحون فيه»[1]، والنمـوذج الذي عليهم أتباعه هو الغرب الذي دُعي إليه عن طريق كتابات علماء الاجتماع الغربيين.

وفي الوقت الذي قدم فيه علماء الاجتماع نظريات التطور السياسي والاقتصادي دعـا علماء الاجتمـاع الماركسيين إلى نظريات «التبعية»، وتعـدُّ نظريات التبعية أن التطـور والتخلف وجهان لعملة واحدة يكون فيها اقتصـاد الدول المتطورة مشروطًا باستقلال دولة أخرى، وأكد دعاة هذه النظريات على التغييرات في التطور السياسي، وأكـد الماركسيون التغير في التطور الاقتصـادي الذي سيطرت عليه الإمبريالية من خلال الدول النامية، وكانت كل هذه النظريات طرقًا لفهم العالم الإسلامي[2].

وكانت البرهنة على النظريات أكثر أهمية من واقع الأحوال السياسية، وواجهت نظريات التحديث تراجعًا بسبب صحوة المسلمين في البلاد الإسلامية، وقدمت عدة تفسـيرات لشرح «لماذا عاد الإسلام التقليدي؟» مرة أخرى، وهو المفروض أن يكون قد قُضيَ عليه في دول تمر بمرحلة التحديث، وفيما يأتي قائمة بهذه التفسيرات:

نظرية رد الفعل الإسلامية:

كان أحـد الاتجاهـات الغربيـة يرى أن الإسـلام في حالة رد فعـل لمجتمعات ما بعـد الاستعمار، فالقوى الإسلامية لم تضعف بالرغـم من أنها تجد غالبًا معارضة مـن القوميين العلمانيين الذين وصلـوا إلى السلطة في مجتمعات ما بعد الاستعمار، وظهـر حاليًـا التحدي من هذه القـوى التقليدية ضد قوى القوميـة، وقد أكد علماء آخـرون أطروحـة «الإحلال - التحول» هذه بـأن أعلنوا أن ثمة أزمـة ثقة في أصالة

(1) D.Lerner, The Passing of Traditional Society. New York: The Free Press, p. 75. Also see: L.C.Brown, «Stage in the Process of change»in C.A.Micaud, et. Al. (ed.), Tunisia: The Politics of Modernization. London: Pall Mall, 1964, pp. 3-68. Also see: D.A. Rustow, et. Al., Political Modernization in Japan and Turkey. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1964.

(2) Asaf Hussain, Political Perspectives on the Muslim World. London: Macmillan Publishing, 1984.



التغريب الذي كون جزءًا من الاستعمار، ورفض هذا كليّة بحجة أن الأصالة تستمد إلهامها من الإسلام.

نظرية الدفاع الإسلامية:

وثمة اتجاه آخر في التفكير الغربي يرى أن الإسلام في موقف الدفاع، وأن عنفه مستمدٌ من إرادته حماية نفسه من الفناء، فقد جعلت حملات الهجوم التي قادها المستشرقون ضد الإسلام العلماء المسلمين يتخذون الأسلوب الاعتذاري في دفاعهم عن مجدهم، ولقد أدى هذا الأسلوب الاعتذاري إلى أن يتجه كثير من المفكرين الإسلاميين إلى الهجوم، ولكن مثل هذا التفسير ينقصه العمق، ومع ذلك فسواء كان الأمر دفاعًا أو هجومًا إلا أنه لا يمكن أن يقود ثورة يجب أن يكون لها قاعدة مبدئية؛ لتقدم مسارًا فكريًا يقدم حياة أفضل من تلك التي تقدمها الأيديولوجيا الرأسمالية والشيوعية.

نظرية الأزمة الإسلامية:

يرى فريق من المنظرين الغربيين أن المجتمعات الإسلامية تمر بحالة من الأزمة بسبب التطور السريع، والتخلف الاقتصادي، ولأن قادتها أيضًا فاسدون مما ترك الجماهير، والطبقة المتوسطة الدنيا في حالة إحباط وضياع، كما نمت أزمة الشرعية السياسية في هذه المجتمعات، ولم تنجح محاولات الحكام المسلمين في التظاهر بالإسلام؛ لاستغلال الإسلام من أجل أهداف سياسية مما أدى إلى تطور المشكلات.

نظرية الاقتصاد الإسلامية:

يعتمد التفكير الماركسي، والماركسي الجديد على الحقيقة أن ازدهار الثروات النفطية في البلاد العربية منذ السبعينات من هذا القرن قد أطلقت الصحوة الإسلامية، كما أوجدت طبقة برجوازية جديدة، وأجبرتهم على الابتعاد عن الدين، فالمشكلة إذن بين المادية، والإسلام بصورة أساسية.

النظرية الثقافية الإسلامية:

يختـار التفسير الثقافي للإسلام الثقافة بصفتها المفهـوم المركزي الذي ينمو الإسـلام حولهـا، وحيث إن الثقافـات الإسلامية تمر بتغيرات مـن جيل إلى الجيل الـذي يليه كذلك سيتغـير الإسلام من الحالة التقليديـة إلى التحديث، ولكنه حتى الآن في مرحلة الانتقال، وهكذا مع مرور الوقت سينتهي الإسلام.

نظرية الهوية الإسلامية:

يجـادل بعض المنظرين المسلمين بأن المجتمعات الإسلامية لم يتم اختراقها من قبل قيم، ومبادئ أجنبية فقط، ولكن أيضًا بالأيديولوجيات الغربية مثل الشيوعية، والاشتراكيـة، والقوميـة، والديمقراطية، وقـد أدى هذا إلى أزمـة هوية بين الجيل الجديـد، وأثار كثيرًا من الأسئلـة المزعجة في عقولهم مثل: هل أنا أولًا ديمقراطي؟ أو هـل أنـا شيوعي أو اشتراكـي أو قومي ثم مسلـم ثانيًا؟ إن الإصـرار القومي من الصحـوة الإسلامية نتيجة لهذا جعـل الشباب يختار الهوية الإسلامية، ومن خلال هوياتهـم قاموا بجعل الأيديولوجية الإسلامية هي ذاتهم، وهي التي تحدث القيادة السياسية في بلادهم.

النظرية الإسلامية في معاداة الامبريالية:

تصور نظرية غربية أخرى المشكلة في إطار كوني، فلما أبقى البناء الاستعماري الجديد، والامبرياليـة العالم الإسلامي في حالة من التبعية شعر كثير من المسلمين بأنهـم أصبحوا لا حيلة لهم وغرباء، ولكن الإسـلام أنقذهم، وألهمهم بأخذ الراية الحربيـة، ومقاتلة تلك القـوى، إن مثل هذه الحرب موجهة نحـو القيادة السياسية لبلادهم التي أصبحت دمًى للقوى العظمى، وباعت مصالح شعوبها.

النظرية التاريخية الإسلامية:

وثمـة طريقـة أخرى حاول بهـا العلماء فهـم الصحوة الإسلاميـة، أو الانبعاث الإسلامـي، وهي: اعتبار الإسلام دينًـا تاريخيًا، أسس المجتمع الإسلامي الصحيح في وقت معـين في التاريخ، وكان لـكل (إمبراطورية) ظهورهـا وانحدارها، وأصبح التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية في حالة انحلال في القرن الحالي، وعمومًا فقد خضعت آراء علماء الاجتماع هذه لنقد حاد، فيرى أحد العلماء أن مفاهيمًا مثل



«التطور»، أو «التحديث» يجب إعادة فهمها بما تعنيه: مجاز، صور شاعرية، أدوات اختـزال، تجريـد، وإن كان لهـا أهمية في التعريـف، أو التحديـد، أو وصف الواقع، ولكـن هـذا يجب ألا يختلـط بالواقع نفسه، إنهـا ليست أدوات مجازيـة بكل القيود لوصـف الواقع التـي تتضمنه، ولكنها مجـازات غريبة، والتي قد يكـون أو لا يكون، (والأغلـب لا يكون) لها علاقة بالعالم غير الغربـي[1]، كل هذه الأخطاء تنطلق بين العلـوم الاجتماعية الغربية؛ لأن «المشكلة بأننا لا نفهم، ولا نريد أن نفهم الحركات التـي تسير عكس المفهوم الغربـي للتغيير، نحن نؤمن حقًا بكل من حتمية، وشمولية المفهـوم الغربـي حول كيفية اتجاه التغيـير إلى الأمام بطريقة مناسبـة. إن الأفكار المركزيـة الأوروبية التي نحملها نحن علماء الاجتماع، وصانعوا السياسة نحملها في عقولنـا مـا تزال هي المفاهيم التـي تنبني عليها افتراضاتنـا بخصوص التحديث، والتطـور في العـالم الثالث»[2]، وعندما يفتح مثل هذا النقـد الصادق عقول علماء الاجتماع الغربيين إلى الواقع الراسخ في الثقافة السياسية، والاجتماعية للمجتمعات الإسلاميـة لا يعتمـد على عنصـر الوقت، ويمكنه فتح عقولهم ليسـ فقط إذا ظهر النقـد بصـورة متكررة، ولكن أيضًا لابـد من ظهور بنـاء مضـاد للعلوم الاجتماعية الإسلامية لتوجيه وتقديم التفسيرات المفيدة للعالم الإسلامي[3].

(1) Howard Wiarda, Ethnocentricism in Foreign Policy: Can we understand the Third World. Washington DC: AMERICAN Enterprise Institute for Public Policy Research, 1985, p. 12.

(2) Ibid., p. 34.

(٣) مـا تزال الصحوة الإسلامية هي محور الدراسـات الأكاديمية، ومحل الاهتمام لدى الدوائر السياسيـة الغربية، ولابد مـن الإشارة هنا إلى محاضر جلسات مجلس الكونجرس الأمريكي التـي عقـدت في يونيـه وسبتمـبر ١٩٨٥م؛ لدراسـة الصحـوة الإسلامية، ونشـرت في كتاب بلغـت صفحاتـه ٤٤٣ صفحة، وقامت مجلة «المجتمع» الكويتية بنشـر كثير من محتويات هذه المحاضـر، والتعليق عليهـا بقلم الدكتور أحمـد إبراهيم خضر ابتداءً مـن العدد ٩١٤ في ٢٠ رمضان ١٤٠٩هـ (٢٥ أبريل ١٩٨٩م)، والمحاضر نشرت بالإنجليزية بعنوان:

Islamic Foundation and Radicalism: Hearing before the Sub-committee on Europe and Middle East of the Committee of Foreign Affairs, House of Represquntadires of 990 Congress, June 24, July 15, Sept 30, 1985.

وقـد نشر المترجـم دراسة موجزة لهذا الأمـر في كتاب بعنوان: الغـرب في مواجهة الإسلام: معالم ووثائق جديدة – المدينة المنورة: مكتبة ابن القيم، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

الاستنتاج:

لقد كان أسلوب العلوم الاجتماعية عمومًا علمنة الإسلام، وفصل الدين عن السياسة، إنهم يعرفون أنّه إذا ما تم فصل الإسلام عن السياسة، فسيكون من اليسير تنفيذ النماذج السياسية، والاقتصادية الغربية في الدول الإسلامية، إن مثل هذه النظريات والمناهج تعد فعالة إذا ما استخدمت في الغرب، ولكن لا يمكن استخدام المقاييس نفسها في دراسة المجتمعات الإسلامية، ولكن كانت الخطة هنا التغلغل في عقول المسلمين بأفكار علمانية، وإحدى هذه الأفكار التي نجحت هي «القومية»، فقد دمرت الأمة الإسلامية عن طريق الصراعات القومية الطابع، وقد بنت هذه الدول بعد حصولها على «الاستقلال القومي» من القوى الاستعمارية كل تطورها السياسي والاقتصادي على النموذج المستخدم من قبل مُسْتَعمِريهم السابقين، ولم تنجح أي من هذه الدول التي كانت مُسْتَعمَرَة أن تُحَرِّر العقل المسلم، وهذه العقول غير المحرَّرة ستظل مستعدة لاستقبال الأفكار الغربية ليس فقط حول القومية، ولكن الأيديولوجيات الأخرى مثل: «الديمقراطية»، و«الاشتراكية»، و«الأحزاب السياسية»، والمفاهيم الأخرى التعليمية، والإدارية، والقضائية، والشرعية.





الفصل السابع

الإعلام وقصور الإعلام

تعهدت الأكاديميات العلمية بأن تختار الصفوة من المثقفين بينما احتاجت الجماهير الغربية شيئًا أسهل لهضمه، وقد ملأت وسائل الإعلام الغربية هذه الفجوة؛ ونظرًا لأن معظم الناس لديهم الوقت ليقرؤوا أو على الأقل يُلقوا نظرة عجلى على الصحف في أثناء جلوسهم، أو سفرهم، فقد أصبحت الصحافة أقوى وسيلة تقدم عبرها المعلومات، وبالإضافة إلى ذلك فالأسرة الغربية في المتوسط تستطيع امتلاك جهاز راديو، وجهاز تلفزيون، ولذلك أصبحت الأخبار أقوى وسيلة لتحريك الرأي العام، ونتيجة لذلك أصبحت وسائل الإعلام أداة رئيسية في أيدي الجهات المهتمة سواء كانت هذه الجهات حكومية، أو مجموعات خاصة، أو أحزابًا سياسية لاستخدامها في الدعاية، وبعبارة أخرى: أصبحت وسائل الإعلام الطريقة التي يمكن أن يُرى العالم من خلالها، وهي أيضًا سلاح يمكن استخدامه بسهولة، وقد توجه القائمون على هذه الوسائل للكسب السياسي والاقتصادي؛ لأنه من خلال وسائل الإعلام تستطيع أن تجعل الجماهير تؤمن بأي شيء.

إن أولئك الذين يسيطرون على وسائل الإعلام هم نتاج ثقافتهم، وما دامت الثقافة الغربية بعامة معادية للإسلام، فهل يعقل أن يكون الإعلاميون مختلفون؟ إنّهم عدائيون كما هو حال علماء الاجتماع في تناولهم للإسلام وللعالم الإسلامي، ويمكن لوسائل إعلامهم أن تقوم بمهمة تعديل نظرة الجمهور على نطاق واسع، إن موضوعية وسائل الإعلام في الحقيقة ضرب من الخيال، لقد اعتقد معظم الناس أن ما يقال في وسائل الإعلام-الصحف والإذاعة والتلفاز- هو الحقيقة، ولكن عددًا قليلًا جدًا من الجمهور توقف؛ ليفكر فيما إذا كان وسائل الإعلام فيها سياسة، أو ذات توجه سياسي، أو تتعرض لأي قيود مفروضة عليها، وخلاصة هذا النقاش: هو أن وسائل الإعلام ليست حرة، وما تزال تعاني من عدد من القيود، وفيما يأتي سنقدم ثلاث حالات دراسية لتوضيح طبيعة هذه القيود، وأول هذه الأمثلة يهتم بالتغطية الإعلامية بالإسلام عمومًا، والثاني الصراع العربي الإسرائيلي، والثالث حول إيران.



التغطية الإعلامية للإسلام:

عُرف ادوارد سعيد بنقده للاستشراق حيث ورد ذكره في فصل سابق، ولكن سعيد كتب دراسة أخرى بعنوان: (التغطية الإعلامية للإسلام: كيف تقرر وسائل الإعلام الصورة التي يجب أن نرى فيها بقية العالم)، وهي دراسة ممتازة تظهر كيف تعرض وسائل الإعلام الغربية التعصب ضد الإسلام؟ ويعلق الباحث من خلال تأثره بدراسة ادوارد سعيد قائلًا: «لم أستطع أن أكتشف أي فترة في التاريخ الأوروبي، أو الأمريكي منذ القرون الوسطى نوقش فيها الإسلام، وفُكِّر فيه خارج إطار العاطفة، والتعصب، والمصالح السياسية»[1]، وقد أكدت هذه الدراسة الحقيقة التي توصل إليها سعيد، والإسلام في الحقيقة في السياسات العالمية مصطلح مُثْقَلٌ بالقيم، ووفقًا لسعيد لقد جُعل الإسلام «كبش فداء»لكل شيء: «فبالنسبة لليمين يمثل الإسلام البربرية، وبالنسبة لليسار يمثل الحكم الديني القروسطي، أما التيار الوسط: فهو نوع من الأشياء الغريبة سيئة الذوق، وثمة اتفاق بين كل الأطراف على أنه بالرغم من القليل المعروف عن العالم الإسلامي، فهناك الكثير الذي يمكن الموافقة عليه فيه»[2]، فإن كانت الحالة كذلك فكيف يمكن للإسلام أن يتلقى تغطية عادلة في وسائل الإعلام الغربية؟ سيكون ذلك بلا شك تفكيرًا خياليًا حالمًا؛ لأنه ينظر إلى الإسلام على أنه تهديد للعالم الغربي بينما ينظر للحضارات العظمى الأخرى في الشرق، والهند، والصين، وغيرها على أنها مهزومة، وبعيدة وبالتالي لا تشكل قلقًا مستمرًا، وعلى ذلك فالإسلام وحده لم يخضع أبدًا للغرب خضوعًا كليًا»[3]، وكانت تجربة الغرب مع الديانة الرئيسية فيه -النصرانية- أنه انتصر عليها، وهذا عزز ثقته في قوته، وفي تفوق أيديولوجيات التحديث، لقد آمن الغرب بفكرة مفادها أنه سيأتي زمن تنهزم فيه كل الأديان تحت تأثيره، ولكن هذا لم يحدث، وما كان هذا إلا ليزيد من العداء

(1) Edward Said, Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How we see the Rest of the World. London: Rout ledge & Kegan Paul, 1981.

(2) Ibid., p. xv.

(3) Ibid., p. 5.

ضد الإسلام، وفي ذلك يقول ادوارد سعيد: «يُعَرَّفُ الإسلام سلبيًا على أنَّه الدين الذي بينه وبين الغرب عداءٌ متطرفٌ مما جعل هذا التوتر يفرض قيودًا شديدة في سبيل معرفة الإسلام، ومادام هذا الإطار موجودًا، فالإسلام بصفته تجربة حيوية يعيشها المسلمون لا يمكن معرفتها»[1]، وهذا مبدأ صحيح، ذلك أن العداوة توجد الكراهية، وليس التقمص العاطفي للموضوع، إنها توجد التحيز في عقل الكاتب الغربي تجاه الإسلام حتى قبل أن يبدأ النظر في الحقائق، ولكن وسائل الإعلام ليست خالية من الضغوط، كما يقول ادوارد سعيد، وعلى ذلك فيمكن لهذه الوسائل أن تستخدم مصطلحات مثل «الموضوعية»، و«الصدق»، و«التغطية الواقعية»، و«الدقة»، ولكنها كلها «مصطلحات نسبية»، إنها تعبر عن نيات ربما، ولكنها لا تعبر عن أهداف قابلة للتحقيق[2]، وعندئذ فكل التحقيقات حول الإسلام، وبخاصة التي تقدمها وسائل الإعلام الأمريكية موجهة للدفاع عن إسرائيل التي ينظر إليها على أنها «بمنزلة معقل الحضارة الغربية وسط (بكثير من الاستحسان، وتهنئة النفس) الأدغال الإسلامية. وثانيًا: لقد أصبح أمن إسرائيل في نظر الأمريكيين قابلًا للتبادل بطريقة ملائمة مع أبعاد الإسلام، واستمرارية السيطرة الغربية، وإبراز فضائل التحديث»[3]، وتناقش دراسة ادوارد سعيد حالة التحقيق حول إيران، ولكن مفهومه حول إسرائيل من قبل الغرب يظهر كيف أن عرض الغرب منحرف دائمًا.

النزاع العربي الإسرائيلي والإعلام:

ما تزال التغطية الإعلامية للشرق الأوسط، والعرب، والنزاع العربي الإسرائيلي، والفلسطينيين غير عادلة، وقد توصلت العديد من الدراسات إلى الاستنتاج نفسه، ومن الممكن الآن رفض تصديق هذه الوسائل؛ لأنها تحمل عددًا ضخمًا من الأدلة والبراهين على تحيز الإعلام، فقد أشارت دراسات تحليل المحتوى لثلاث

---

(1) Ibid., p. 55.
(2) Ibid., p. 146.
(3) Ibid., p. 31.



صحـف أمريكية هي نيويورك تايمـز (New York Times)، ولوس أنجلوس تايمز (Los Angeles Times)، والـواشنطن بوست (Washington Post)؛ حيث أظهرت هذه الصحف عمومًا لهجة مؤيدة لإسرائيل عند تغطيتها للنزاع العربي الإسرائيلي، فقـد أيدت هذه الصحف جميعها إسرائيل خلال الصـراع العربي الإسرائيلي عام ١٩٦٧م، ونـادت بأن على أمريكا ألا تؤيد إسرائيـل دبلوماسيًا فحسب، بل عليها أن تمد إسرائيل بالمساعدات العسكرية(١).

وأجرت دراسة أخرى مقابلات مـع عدد من الصحافيين، والكتّاب الأمريكيين، والكتبـة الذين تعاملوا مع الأخبار المتعلقة بالشـرق الأوسط من خلال صحف مثل: واشنطن بوست، ومن خلال المؤسسات التليفزيونية مثل: إن.بي.سي (NBC)، واي بي سي (ABC) (٢)، وقد أشارت إجاباتهم على عدد من النقاط أن ثمة إجماع عام.

أولًا، وافـق الصحافيون على أنه إذا وجد هجوم علـى إسرائيل، أو سياساتها، فـإنَّ اليهود يستقبلونها على أنها «معـاداة للسامية»، ولو وصف شخص بأنه «معاد للساميـة»، فمعنـى ذلـك أن يَصـف الشخـص نفسَه بأنـه تابع لعصابـة النازيين المجرمـين، وهذا التهديد، وهو: أن يوصف الإنسان بأنـه معاد للسامية كَبَح أيَّ نقد لإسرائيـل، وعلـى العكس فإن الأسلـم أن يأخذ موقفًـا صريحًا في تأييـد إسرائيل متناسيًـا عمـدًا صحة، أو خطأ هـذا العمل، ويتم ذلك غالبًـا بحسب الطريقة التي تعـد بها الأخبـار، فمثلًا: وصف هجـوم فلسطيني على إسرائيل بأنـه عمل إرهابي بينما غارات إسرائيل ضد الفلسطينيين -أو على لبنان- وصفت بأنها انتقام، وبهذا العمل تكون وسائل الإعلام قد صنعت نوعين مختلفين من الصور، ومعنى هذا على

(1) Charles H.Wagner, Elite American Newspapers, Opinion and the Middle East. Commitment versus Isolation in W.A.Stirling (ed.). The Middle East: Quest for and American Policy. Albany N.Y: State University of New York Press, 1973, pp. 314-317.

(2) Edmund Ghareeb, «On American Media and the Palestine Problems» in Journal of Palestine Studies. Vol. v, nos. 1-2, (1975-1976). Pp. 127-149.

حد قول أحد الصحفيين أن «لا تذكر الفلسطينيين»، وأي شخص يروي قصة هؤلاء الملايين من اللاجئين المتروكين بعيدًا في الصحراء، أو أي مكان آخر، إنه بمجرد الرواية سيثير شعورًا حول هؤلاء الناس، لذلك فهم لا يحاولون أن يرووا القصة الفلسطينية، فيتكلمون عن الفلسطينيين على أنهم إرهابيون، وليس على أنهم شعب[1]، وهذا الأمر يجعل القارئ في شك كيف تستطيع وسائل الإعلام المحافظة على بقاء هذه الصورة المزيفة للفلسطينيين على أنهم «إرهابيون»وليسوا شعبًا؟

ثانيًا: يرى بعض الصحافيين أن ثمة خلافات ثقافية بين العرب والإسرائيليين، وهذا هو سبب الخلاف كله في التغطية الإعلامية، ونظرًا لأن الإسرائيليين من «أصول أوروبية»، فهم بذلك «يمتلكون إحساسًا متقدمًا بالعلاقات العامة، فهم يعرفون كيف يلعبون لعبة العلاقات العامة، وكيف يتكلمون لغتنا، إنهم يعرفون كيف نستخدم العقل، وهم قادرون على الإفادة[2] من ذلك». هذه الإجابة التي قدمها الصحافيون ضعيفة؛ لأنها تفترض بأن العرب لو استطاعوا استخدام المهارات نفسها، كما اليهود فإنهم سيحصلون على فرص متساوية، هذه مغالطة، فعدد العرب في أمريكا ليس قليلًا، ومع ذلك فإنهم لم ينجحوا، وبالتالي فالصحافيون يخلطون بين الإسلام والعنصرية، فالأمر ليس لأن الإسرائيليين من أصول أوروبية، فهم يحصلون على تغطية إعلامية أفضل، إن السبب هو أن «العامل الثقافي»إسلامي، وهذا هو السبب الذي جعل أحد الصحافيين يقول بكل وضوح: بأن الأمر «سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يفهم الأمريكان، ولكي يترك الأمريكيون الصور الجامدة عمومًا التي يحملونها عن العرب»[3]، هذه الصور الجامدة كما ذكرنا سابقًا تنبعث من أساطير، ومغالطات حول الإسلام، والشعب الإسلامي أي شيء سلبي حول الإسلام يُعَدُّ «أخبارًا». أما ما يُكَوِّن «الأخبار»، فيعتمد ليس على قرارات محرري الأخبار، ولكن أيضًا على الجمهور الذي تُقَدَّم له، وعند السؤال

(1) Ibid., p. 149.
(2) Ibid., p. 132.
(3) Ibid., p. 132.



عـن السبب الذي دعا إلى إرسال مراسلين لتغطية الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٧٣م إلى الجانـب الإسرائيلي فقــط، كانت الإجابة: أن سبب ذلك هو وجود عدد كبــير من اليهود في المدن الكبرى حيث يوجد جمهور مستقبل لما يحدث في إسرائيل ورد الفعــل الآلي لمحررينا أنهم ينظــرون إلى المسألة من زاوية ماذا يريد القراء أن يعرفــوا؟ وماذا كانوا يريــدون أن يعرفوا هو: كيف عملت إسرائيل؟ فمن الواضح أن معيــار الموضوعيــة الصحافية قد تم التنازل عنه من أجـل الجمهور، والذي لم يكن الجمهور يريد معرفته لا يُعَدُّ أخبارًا[1].

وقامت دراسة أخرى بفتح الافتتاحيات المتعلقة بالشرق الأوسط في إحدى عشرة صحيفــة أمريكية كبرى[2]، وهذه الصحــف هي: نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وشيكاغــو تريبيون، ولوس أنجلوس تايمز، ودنفر بوســت، وأتلانتا، وكونستيتيوشن، وكريسشــان سينســ مونيتور، وسينت لويس بوس دسباتشــ، ووول ستريت جورنال، ولــوي فيل كوريــر جورنال، ودلاســ مورنينج نيــوز، وكانت فترة التغطيــة من يناير ١٩٦٦م حتــى ديسمــبر ١٩٧٤م، وقــد رسمت نتيجــة الدراسة خريطــة الاتجاهات العامة الموجودة في محتويات الافتتاحيات لهذه الصحف.

أولًا: سلطت الأضواء على النزاع العربي الإسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧م، ولكن قبــل ذلــك وبالرغم من الأزمة اللبنانيــة سنــة ١٩٥٨م إلا أن اهتمام تلك الصحف تركز حول موضوعات أخرى مثل الحرب الباردة، وأزمة برلين، وأزمة الصواريخ في كوبا، والكونجو، ولاوس، وغزو جمهورية الدومنيكان، وفيتنام.

ثانيًــا: ازدادت تغطية وسائل الإعلام للشــرق الأوسط خلال الفترة المتعهد بها في وقت «الأزمة» مثل مشروع روجرز، والهدنة المصرية الإسرائيلية... الخ. ولا يعني هذا أن وسائــل الإعلام أهملت الشرق الأوسط في أوقات أخرى، ولكن ذلك يبرهن

(1) Ibid., p. 138.

(2) R.Trice, The American Elite press and the Arab-Israel Conflict. The Middle East Journal. Vol. 33, No. 3 (1979), pp. 304-325.

الـرأي القائل بأن وسائل الإعلام أعطـت اهتمامًا أكبر لتلك المشكلات التي وصلت في نظرها مرحلة «الأزمة»، وفي مرحلة «اللا أزمة»يمكن أن يكون أي موضوع مهم في غير مصلحة فيما يتعلق بالتغطية الإعلامية(١).

ثالثًا: كان الاتجـاه أن «المحرريـن الأمريكيـين كانـوا أكـثر تأييـدًا لإسرائيل منهم للـدول العربية، «وكانت الافتتاحيات تميل إلى نقـد تصرفات الفلسطينيين، والفرنسيين، والسوفيت، ومواقفهم السياسية»(٢).

كانت تغطية الإعلام الغربي للغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢م حالة أخرى لفقدان الموضوعيـة في وسائـل الإعلام، فبينمـا بلغ عدد القتلـى من المسلمـين اللبنانيين، والفلسطينيين أربعة عشر ألفًا وستين ألفًا من الجرحى، وعشرة آلاف سجين، وستين ألـف مشـرد بلا مأوى أصرت وسائـل الإعلام الغربية على حاجـة إسرائيل -مهما كان الثمـن الإنسـاني- للأمن خلال غزو إسرائيل للبنان سنـة ١٩٨٢م الأمر الذي دعـا أحد المراقبين إلى القول «من المدهش أن الإصابات التي تعرض لها اللبنانيون لا تذكـر إلا قليـلًا في الإعلام الأمريكـي، أو الحكومة الأمريكيـة»(٣)، لقد أصبحت مسألـة الموضوعيـة الإعلامية بالنسبة للبنـان واضحة بشكل مدهـش، وقد تساءل أحـد المراقبين هل «من العدل أن تكون التغطيـة الإخبارية محكومة بالطرف الذي يستطيع أن يقدم بيانات صحافية بسهولة، وجولات في المعركة، وفرصًا للمقابلات أو التصوير؟ هل تنفي سهولة توفر المعلومات الجاهزة واجب الصحافة في البحث عن مصادر أخرى؟ ومع ذلك فإن عدد أولئك الذين يواصلون الاعتماد على آلة الدعاية الإسرائيليـة في كل مـن الولايات المتحـدة، والشرق الأوسط قد أعاقـوا الموضوعية الأساسية في إعـداد التقارير، وظهور الصور الحقيقية للناس، والأحداث في العالم

---

(1) E.Epstein, Between Facts and Fiction: The Problem of Journalism. New York: Vintage Press,.1975.

(2) R.Trice, Ibid., p. 12.

(3) T.Rubin, The Censored Price of War. The Christian Science Monitor, June 16th 1982.



العربـي»[1]، ولم يوجد مراسل واحد يرى أن ما فَعَلَتْه أمريكا حينما زودت إسرائيل بالقنابل العنقودية التي تسببت في الدمار بين المواطنين المدنيين أمرًا يستحق ذكره وكتابتـه، ولم يتساءل أحد عن التصرفات غـير الإنسانية للإسرائيليين في رفضهم السماح للإمدادات الطبية الطارئة للدخول إلى المناطق المتضررة بالحرب، بل على العكـس كان ثمة تأكيد لحـق «إسرائيل» في حماية شعبهـا[2]، ولم يتقدم أحد ليثير السـؤال الطبيعـي جدًا، وهو: ما هي كميـة العنف الصريح المسمـوح به في القانون الـدولي؟ بل إن إحـدى الصحف وجهت اللـوم للعرب بقولها: «هـل يمكن أن يكون العرب هم الذين أوجدوا المشكلات الفلسطينية كسلاح لتدمير إسرائيل؟»[3]، ومع ذلـك فثمة جانـب آخر تمثل في أن القصف الذي قامت بـه البحرية الأمريكية ضد السـكان المدنيين في لبنان سنة ١٩٨٣م لم يكن ليثير أي اهتمام. كيف يمكن لحادثة مـن المفترض أن تكون مليئـة «بالأخبار» ويمكن تجاهلها؟ كيف يعقل أنه لم يكن أي صحـافي مرابـط في بـيروت، أو في أي دولة مجـاورة يمتلك الشجاعـة، فيزور جبل الشـوف ليطلع على التدمير الـذي حدث للمنطقة، والخـراب، والمآسي التي تسبب فيهـا هذا القصـف ضد المدنيين، لـو كان المسلمون هم الذين قامـوا بالقصف، أو الفلسطينيون ضد المارونيين، أو الإسرائيليين، فسيلقى ذلك بالتأكيد تغطية واسعة، ولكـن مادام الهجوم ضـد المسلمين، فليس ثمـة تغطية إعلاميـة لإظهار الحقيقة، ولكـن ينشـر ما يمكن أن يهم القـراء، عندما أرسل توماس ال. فردمان (Tomas L. Friedman) رئيـس مكتـب جريـدة نيويـورك تايمـز في بيروت تقريـره أصيب بالدهشـة؛ ليجد كلمة «بدون تمييز» محذوفة من مقالته حول القصف الإسرائيلي، اتصـل بجريدته ليكتشف أن المحرر كان خائفًا من إخبار القراء بالحقيقة، وقد عد

(1) mary McDavid, Media Myths of the Middle East: The US Press on the war in Lebanon in Edward Ghareeb (ed.), Split Version: The Portrayal of Arabs in the American Media. Washington D.C. American Affairs Council, 1983, pp. 300-301.

(2) See: Editorial, The Fighting in Lebanon, The Washington Post, June 7th, 1982.

(3) The Chicago Tribune, Quoted in Mary McDavid., Ibid.

المراسل هذا العمل أمرًا منافيًا لمبادئ المهنة تمامًا»[1].

ركزت معظم الصحف على جانب واحد فقط من الحدث، وهو تبرير الغزو الإسرائيلي، فقد كتب مراسل جريدة واشنطن بوست بأن «الهدف المعلن» لإسرائيل هو تخليص منطقة الحدود من الفلسطينيين، هدف إسرائيل كان فقط تحرير لبنان من «تهديد الإرهاب»، وجادل في إحدى رسائله الصحافية بأنه بالرغم من أن النيران الإسرائيلية قد قصفت منطقة الدامور بعنف، فإن اللبنانيين قد تعرضوا «لسنوات عديدة من الحرب الأهلية الوحشية»، ووصف جون كودي (June Cody) مراسل واشنطن بوست: كيف «كان سكان الجليل معرضين للهجوم بصواريخ منظمة فتح وبرر استيلاء إسرائيل على أسلحة الفلسطينيين التي كان هدفها «التدمير النهائي لإسرائيل»؟ وكتب كودي أيضًا عن عجز لبنان قبل وجود الفلسطينيين، وكتب جوناثان راندل (Jonathan Randal) من جريدة واشنطن بوست أن قنابل عنقودية قد أصابت مستشفى، ولكن ليس هناك «دليل» على أن الإسرائيليين هم الذين فعلوا ذلك؛ حيث كان السوريون قريبًا من المنطقة، وربما كان ذلك خطًأ حربيًا، وكتب ديفيد اوتووي (David Ottoway) أيضًا في جريدة واشنطن بوست بأن حصار إسرائيل لبيروت ليس موجهًا ضد المواطنين المدنيين، بل هو ضد «المعاقل المتبقية للفدائيين الفلسطينيين»، ودافع ديفيد شيبلر (David Shipler) عن الإسرائيليين بكتابة تقرير في جريدة نيويورك تايمز ذكر فيه كيف أصبح الفدائيون الفلسطينيون تحت قيادة فتح «جيشًا» خطرًا وكربًا على لبنان. وكتب مراسل آخر هو: وليام فارل (William Farrell) من جريدة نيويورك تايمز عن قصة «السنوات السبع من العنف والقتل» في لبنان، وكيف قدمت «الزهور والمرطبات» للجنود الإسرائيليين؛ لأنهم استُقبِلوا بترحاب على أنهم محررو المارونيين النصارى. وكتب فريدمان في نيويورك تايمز: أنَّ هدف الإسرائيليين هو ملاحقة «المركز العصبي» لمنظمة فتح، وقد أخبر مراسلو الـ واشنطن بوست

(1) Roger Morris, Beirut and the Press under Seige. Columbia Journalism Review, November/December, 1982, p. 24.



مـن أمثال: أوتـووي، وراندال، وكليربورن، وكودي قرائهـم بأنه من الصعب تحديد عـدد الإصابات؛ حيـث لا يوجد «مصدر مستقل»لتأكيدهـا فيما وصفت الصحيفة الإسرائيليـة (جروسلم بوست) بأن التغطية الإعلامية الأمريكية على أنها «خلاعة سياسيـة»، ولاحظت جريدة بوسطن جلوب (Boston Globe) بأنه كان هناك قلق حـول تغطية الإعـلام لإسرائيل، وهذه التغطيـة تؤكد بوضوح أسطـورة الموضوعية الإعلاميـة، وكما لاحظ موريس (Morris) أن هذه التغطية تميل إلى الإسرائيليين، والمارونيـين «بكل القوة المطلقة والاتسـاع»، إن الآراء التي أثيرت أثناء تغطية الغزو الإسرائيلي ليس لها إلا أمثلة قليلة جدًا في التاريخ الصحافي[1].

التغطية الإعلامية لإيران:

ثمـة حالة أخرى مـن التحيز الإعلامـي، والتي أصبحت برهانـًا صريحًا، وهي التغطيـة الإعلاميـة للثورة الإسلامية في إيران؛ حيث لم تحصـل إيران على تغطية إعلامية عادلة منذ سنة ١٩٧٩م، وهي حالة جيدة للدراسة؛ لأن التغطية لآل بهلوي كانـت إيجابية جـدًا، وكان الفـرق واضحًا بين إيـران الإسلامية، وإيـران في عهد البهلوي؛ حيث كان البهلـوي علمانيًا، ومضامين هذا الأمر واضحة بالنسبة للغرب: فالثـورة تعادي الغـرب، وتوجه إليه اللوم على تبعية إيـران، وفسادها بينما سياسة الشاه مؤيدة للغرب، وتشجع التغريب في إيران.

وقـد قـام أستـاذان جامعيـان بدراسـة حديثـة لاستقصـاء مشكلـة التغطية الإعلامية لإيران، وقد قدمت الدراسة تحليلًا شاملًا للتحيز الإعلامي، كان عنوان الدراسـة: (الصحافة الأمريكية وإيـران)، وشملت هذه الدراسة مرحلة طويلة من عـام ١٩٥١م، وحتـى الثورة الإسلامية، وكيف عالجـت الصحافة الأحداث، وكانت الأطروحة الأساسية في الدراسة، كما ذكر أحد المشاركين فيها «إن العيب الرئيسي في تغطيـة الصحافـة الأمريكيـة لإيـران في السنـوات الخمس والعشريـن الماضية تمثـل في تجاهل سياسات تلك الدولة، وتعود أصول هـذا الفشل إلى الافتراض بأن

(1) Ibid., p. 23.

تطلعات الإيرانيين السياسية ليست مهمة حقيقة، لقد كان المسئول عن تكوين هذا الافتراض، وتقويته إدارة الشئون الخارجية، وتم اعتماده من قبل المفاهيم السالفة ذات المركزية الغربية العالية، وأيديولوجية الحرب الباردة، وكان الاعتقاد الضمني في هذا الافتراض أن الشعب الإيراني لم يكن قادرًا في مجال السياسة، وأنه غير مؤهل لحكم نفسه، وغير مؤهل؛ ليكون لديه رغبة أصيلة للحرية، وبناء على هذه المعتقدات لدى صانعي السياسة، وقبولها دون نقد من الصحافيين؛ لذلك جاءت ثورة ١٩٧٨م مفاجأة للرسميين، وللجمهور العام(١).

ظل الجمهور الأمريكي في الظلال حول سياسة إيران بسبب نخبة السياسة الخارجية الأمريكية الذين كانوا هم النخبة السياسية، والنخبة البيروقراطية، ونخبة المصالح ممثلين جماعات المصالح الخاصة، ونخبة الاتصالات الذين كانوا هم صانعو القرار في وسائل الإعلام»(٢)، لقد أوجد تعاون هذه النخبة صحافة الإذعان التي تعمل غالبًا بمكر؛ ذلك أن الأيديولوجية المسيطرة مشتركة بينهم، «ولأن النظرة نحو العالم مشتركة بشكل واسع داخل، وخارج النظام الصحافي حتى أنها لتظهر غير متعصبة، ويصبح مثل هذا التحيز الجماعي رأيًا مستقبليًا، ويصبح بالتالي أمرًا غير مرئي»(٣)، وثمة حالات كثيرة كان التعصب فيها صريحًا؛ حيث اتخذ صانعو القرار في الإعلام قرارات «لم تكن مبنية على الاعتبارات المهنية، أو اقتصاديات جمع الأخبار، ولكن على الاهتمامات الأيديولوجية، وفهم المصالح القومية، وهناك أدلة كثيرة تقترح حقيقة مفادها: أن الصحافة أكثر تحيزًا للدولة مما تعترف به، والدليل موجود في تحليل التغطية الإخبارية لعدد من الأحداث الرئيسية؛ حيث كانت تهدد مصالح الولايات المتحدة بما في ذلك جواتيمالا سنة ١٩٥٤م، وجمهورية الدومينيكان في عام ١٩٦٥م، وشيلي سنة ١٩٧٣م، وتيمور الشرقية سنة ١٩٧٥م، ونيكاراغوا ١٩٧٨م، والأحداث المستمرة المتعلقة بالاتحاد

---

(1) William Dorman and M.Ferbang, The US Press and Iran: Foreign Policy and the Journalism of Defense. Berkeley: University of California, 1987, p. 13.

(2) Ibid., p. 29.

(3) Ibid., p. 207.



السوفيتـي، ونفقات الدفـاع، وهذا فقط عدد قليل من هــذه الدراسات»[1]، وبذلك فهذه الدراسة الجادة تكشف لنا أسطورة التقارير الإعلامية.

وبغض النظر عن صحة الآراء التي تدافع عنهـا الدراسة، فإنّ أبعادها الدينية قـد عكسـت الطابع العدائي القـديم للإسلام في الغرب، فالصحـافي نتاج المجتمع الغربـي، وهو منفتح إلى شخصية من تقاليدها عـدم الاهتمام إذا ما كان الإنسان متدينًـا أو علمانيًا. أما مصطلح: «الأصولية»-مثلًا- فقد حُمِّل كثيرًا من القيم من وجهـة النظر الغربية في محاولـة لتشويه الإسلام، والنقطـة الجوهرية في كل هذه المجـادلات هو كلمـا كان المسلمون أكثر علمانية، كلمـا انخفض تهديدهم للمصالح الغربيـة في أي بلد، ويعـدون بالتالي متحضرين، وكلما أصبـح المسلمون أكثر تدينًا أصبحـوا أكثر عداء للغـرب، فيوصفون عندهـا بأنهم «برابـرة»، و«متعصبون»، أو أصوليـون، وأحد الأعـذار التي قدمها الصحافيون الغربيـون للتغطية الإعلامية المتحيزة للشرق الأوسـط مسألة توفر المعلومات، فلو وفرت لهم الإمكانات، وأعطوا تأشـيرات بحرية، فإن تغطيتهم ستكون أفضـل، ولا يمكن البرهنة على هذا الرأي؛ لأن المسألة ليست مسألة توفر المعلومات، ولكنها الآراء المسبقة التي يؤمنون بها نحو الإسلام، هذه الآراء والصور والمعلومات الخاطئة قد انعكست على نظرتهم للواقع، ولن تؤثر إمكانية الحصول على معلومات تأثيرًا كبيرًا على مسار هذه النظرة.

وهنـاك جانـب آخر لمسألة الحصـول على معلومات، فحتى لـو سمح للصحافي أن يصـل إلى هدفه «فإلى أي حـد يكون الصحافيون، ورجـال الأخبار التنفيذيون هـم حراس الأخبار الذين يقررون أولوية النشر، ويختارون الإخباريين لتغطية هذه الأخبار؛ حيـث يغذون قرائهم بالآراء الجامدة والنظـرات المسبقة عن الحدث[2]؟ وهكـذا فمـا الضمان بأنه على الرغـم من توفر المعلومات بأنـه سيقدمون الحقائق بصـدق؟ وبكلمـات أخرى الإعلام مهتـم بالأشياء التـي تصنع «الأخبـار»، وليس مكونـات الحقيقـة؛ لأن الأخبار هــي التي تبيع الجريـدة، ونظـرًا لأن القرار الذي

---

(1) Ibid., p. 210.

(2) Ibid., p. 214.





يحـدد طبيعة الأخبار، وطبيعة «الحقيقة»هو قـرار مهم، فإن وسائل الإعلام تجيز الموضوعـات التـي تعتقد أنها تهـم قرائها فقـط، وهكذا فإنها تـبرز تلك الجوانب التـي تصنع الأخبـار، وتحذف تلك التي بالرغم من صدقهـا لا تصنع أخبارًا، هذه الاعتبـارات حقيقية، وتجعل الصحـافي يعترف بصراحة «بأننـا نحن الذين نعمل في المهنـة لا نحتاج إلى إدوارد سعيد أو غيره مـن النقاد الأكاديميين؛ ليخبرونا بأن تغطيـة الإعـلام الأمريكي للـدول، والمجتمعـات الإسلامية ينقصهـا غالبًا العمق، والتوازن أو الفهم»[1].

إن معيار الأخبار يتغلب على معيار «الحقيقة» في الإعلام، ولا يقدم كثير أمل في التغيـير، ويتكون معيار الأخبار في كتب الصحافـة المنهجية الأمريكية من «الحدود الزمنية»، و«الأهمية التاريخية»، و«إمكانيـة المشكلة»، و«المسؤولية البشرية» التي درسـت في إطار اتخاذ الحكم المهني»[2]، وكان من المفترض أن تحمل الصحافيين علـى «أن يتذكـروا دائمًا أن ما نكتب عنه؟ وكيـف نكتب عنه؟ له دور مهم في تكوين الـرأي العـام في مجتمـع ديمقراطـي»[3]، ومـع ذلـك فـإن الصحافي يشعـر بأنه مسئـول اجتماعيًـا أمام مجتمعه، وبالتـالي يقدم الصحف، وجمهـوره بـ «صحافة المستهلك» التـي يمكن أن تتصرف بشكل لا مسئول، وتفعل ذلك باستغلال انفعالات الشعـوب الأخـرى، فليس مـن المدهش أن نجـد أن «العرب هم بلا شـك الضحية الحاليـة للصور السلبيـة الجامدة ليس فقط في التليفزيون، بـل في وسائل الإعلام الأخـرى في الولايات المتحدة الأمريكية»[4]، وما تفعلـه هذه الوسائل هو الزيادة في تأكيد معيار «الأخبار»، فالمراسلون قد وضعوا نظامًا لتفسير العالم الإسلامي، فما

---

(1) J.K.Colley, ‹The News from the Mideast: A Working Approach› in The Middle East Journl, Vol. 5, 1981, p. 466.

(٢) Ibid., p. 466.

(3) S.Bell, American Journalism: Practices, Constraints and Middle East Reportt age. M.W.C. Hudson (ed.). The American Media and the Arabs. Washington D.C: Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1980, p. 51.

(4) Ibid., p. 52.



علـى الصحافي إلا أن يقرأ بضعة كتب، وبعض التقارير الصحافية، فيصبح جاهزًا لتغطية أخبار تلك الدولة.

ففـي حالة إيران «لا يعـرف الإخباريون اللغة الفارسيـة، وليس لديهم إحساس بالموقـع المحلي، أو تعاطف مع المجتمع، ويجـد أن خلفيته قد أصبحت لا تتناسب مع الأوضاع الثورية المتغيرة في إيران، وبالتالي يستأجر شخصًا محليًا؛ ليترجم له اللغة والأحـداث، وهـؤلاء الأشخاص عادة مـن المتغربين الذين لا يفهمـون الخميني، ولا دعوته (ولا يفهمـون الإسلام)، ويقود هذا إلى تأكيد الجهل والتقارير المضللة»[1]، ولـو افترضنا أن رجل الأخبار يريـد اكتشاف الحقيقة، فإن اعتمـاده على مصادر ثانوية، وهي متحيزة لن يكون الطريق لاكتشافها.

إن القيمـة «الإخبارية» للقصة المـراد تغطيتها تضع قيدًا آخـر على المراسلين، فالقيمـة الإخباريـة التي تضمن الإلحاح والسرعـة في التغطية تصبح حاجة ملحة، وبحسـ بسيط كهذا مـن المستحيل على الصحافي أن يستخـرج الحقيقة، وقد حدد اثنـان مـن المراسلين التلفزيونيـين تحديدًا صحيحًـا الضرر الذي يمكـن أن يفعله هـذا النوع من التغطية، فقد كتبـا أن السرعة في إعداد التقارير غالبًا ما يؤدي إلى التنازل عن العمـق والصدق في الأحداث، فالصورة الأولى التي تقدم إلى الجمهور تتسبـب في أضرار لا تستطيع التقارير المفصلـة تصحيحها فيما بعد[2]، إن الصـور التـي عَرَّفـت بالمشـرق العربي في ذلـك الحين لم تعرضهـم على أنهـم رجال دولة عظمـاء، ودبلوماسيون، وشعراء، ورجال صناعة، ومعلمون، وأعضاء أسر.. إلخ، بل علـى العكس من ذلك تُصَوِّرَهـم «على أنهم جوعى للجنس، ومنهمكون في استغلال الفتيـات المراهقات جنسيًا، ويطعنـون من الخلف، وشيوخ بـترول أثرياء، ويملكون الجمـال والسيارات، ويجلسون في سيارات الليموزيـن السوداء، ويلبسـون النظارات السـوداء، ويبـدون شريرون. وقد علـق أحد الملاحظين أن السبـب الجزئي لصورة التلفزيون الأمريكي عن الشخصـ زائغ البصر ذي الأنف الخطاف، الوسخ العربي العابسـ «هو الجهل، والكسـل، والخوف، الخوف من جماعـات الضغط أن تعد أي

(1) Ibid., p. 54.
(2) J.K Cooley, Op. cit., pp. 474-475.

نظـرة متوازنة للعـرب دعاية لهم»[1]، فإن أي تصويـر إيجابي للعرب سوف يعكس القيم الجميلة للإسلام، كما تبدو من خلال المؤمنين به.

إن دور جماعات الضغط النشطة المتمثلة في امتصاص أي نشاط معاد للإسلام في الغرب يجب ألا يقلل من أهميته، فاللوبي اليهودي –مثلاً– قوة ضاربة في الولايات المتحـدة[2]، فقـد كتب أحد كتّـاب الأعمدة المرموقين في جريـدة نيويورك تايمز في إجابته عن استفسار عن هذه الضغوط، قائلاً: «تملك إسرائيل أقوى جماعة ضغط في الولايـات المتحدة، وليس عنـدي شك بأن كل كُتّاب الأعمدة... حريصون جدًا في التعليـق على هـذا الموضوع»[3]، وبهذا المنظور فإن موضوعيـة الإعلام –كما ذكرنا سابقًا– إنما هي ضرب من الخيال.

الاستنتاج:

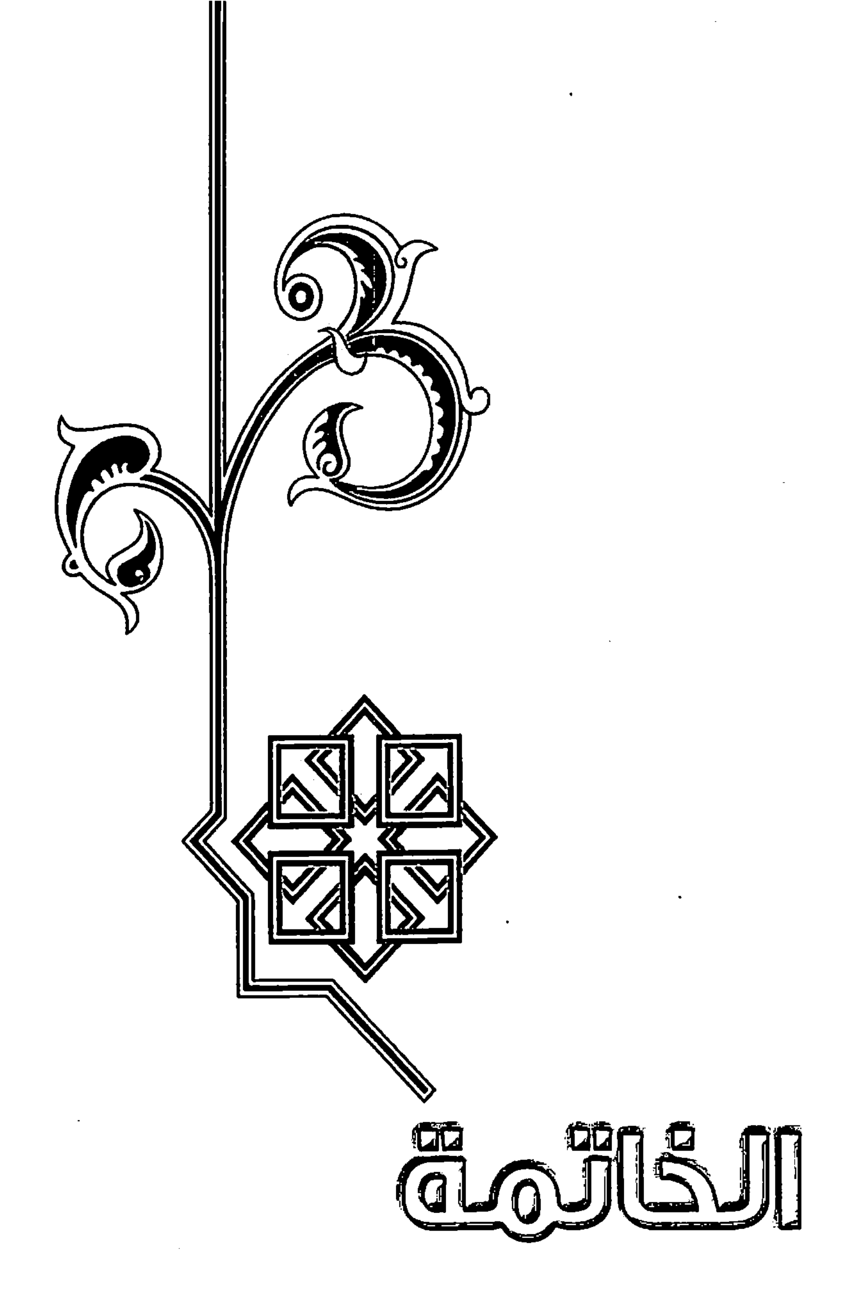
مـا تـزال وسائل الإعـلام واقعـة تحـت سيطـرة وكالات الأنبـاء الغربية ذات الإمكانات الجيدة والراقية، وما تزال وسائل الإعلام الغربية أداة قوية في التأثير في الرأي العام في الدول الديمقراطية، وقد خدمت بهذه الطريقة المصالح السياسية، والاقتصاديـة، والتخطيطية، وبالتـالي فتغطية وسائل الإعلام هـذه كانت محابية للدول المؤيدة للغرب في العالم، وإذا ما خرجت دولة عن هذا الإطار لم تجد التأييد من وسائل الإعلام، بل غالبًا ما تنشر عنها أخبارًا خاطئة. وما تزال وسائل الإعلام هي ذراع الدعاية الغربية، والإسلام هو أسوأ ضحية لها.

(1) Jack Shaheen, American Television and Arabs in Dehumanizing Rotes in M.C.Hudson, Ibid., pp. 39-4.

(2) See: A. Hussein, The United States and Israel: The Politics of Special Relationn ship. Islamabad: Auid-e-Azam University, Area Studies Department, 1987.

(3) H.Piety, Bias in American Editorial Pages in Edmund Ghareeb (ed.), Split Verr sion. Op. cit., p. 140.





الخاتمة

لابـد أن هذا العرض الموجز قد جعل القـرّاء على وعي باتجاهات الفكر المعادي للإسـلام، وأشكالـه المختلفـة، ومحتوياته، كما هـو متبع في الغـرب، وسيكون لدى الإنسـان مـن خلال هـذا التقليـد المعـادي للإسلام فكـرة عامة عن فهـم الغرب للإسلام. إن الهجوم الأساس لمعاداة الإسلام واضح من خلال المستشرقين الجدد، ودراسات علم الاجتماع، وتغطية وسائل الإعلام. إن العلماء الرحّالة الذين اعتادوا أن يتجسسـوا لبلادهـم تجسسًا مباشـرًا، أو غير مباشر نادرًا مـا يوجدون الآن في البـلاد الإسلامية، فقـد استعاض الغرب عنهم بـوكالات الاستخبارات المتطورة في العالم الغربي، وهم يهتمون بصفة خاصة بدور الذين يطلق عليهم التسمية الرائجة «الأصوليـين»، والمجموعـات «الإرهابيــة» في العالم الإسلامي، مثـل هؤلاء الوكلاء يُقتلـون إذا عُثِر عليهم في بعض البلاد الإسلامية، فقد قتل تسعة وكلاء للمخابرات المركزية الأمريكية في انفجار حدث في السفارة الأمريكية في لبنان[1].

تمـر هذه الحركة غير المرئية بأعنـف مراحلها خلف الستار، فلم تعد الحملات الصليبيـة الطريقة الشعبية، وبدلًا من ذلك تحـدث مواجهة عسكرية محدودة بين النصـارى والمسلمين في لبنان، وفي مصر، وفي السـودان، ومع النصرانية ثمة عدد آخـر من الدوافـع مثل السيطـرة على الـثروات الطبيعية ذات الطبيعـة السياسية والاقتصاديـة، وتستمـر النزعة العنصرية، والصـور العنصرية الجامدة في الدول الغربيـة، وقـد وجـدت هذه فقط علـى أساس لون البشـرة، ومنذ ظهـور حركات الصحوة الإسلامية في الدول الإسلامية أصبح الغرب في حالة انتباه متزايد بسبب وجود المسلمـين في أوروبا[2]، ولم ينس الغرب وجود العرب في أسبانيا، والأتراك في أوروبـا الشرقية قبل عدة قرون، فالوجود الإسلامي الجديد بالتالي مزعج لأسباب سياسية ودينية.

---

(1) See: Claudia Wright, Scared Rage. London: Andre Duetsch, 1986, p. 16.

(2) Thomas Gerhoim, et, al. (ed.), The New Islamic Presence in Western Europe. London: Mansell Publication, 1988.



ولكـن يجـب ألا نقلل مـن شأن حرب الغـرب للإسلام، ففي العصـور الوسطى كان علـى الإسلام مواجهـة النصرانية فقط، أما اليـوم فالإسلام يواجه عددًا من الجبهات التي فتحت ضده، ومنها: العلمانية، والماركسية، والاشتراكية... إلخ، وكلها وجدت الإسلام عائقًا في طريق توسعها. إن التهديد الذي يواجه الإسلام من الغرب العلمـاني أمر خطير، والسبـب: أن مصالح العالم الغربـي الاقتصادية والسياسية راسخـة جـدًا في العالم الإسلامي، وحيث إن هذه المصالـح بالإضافة إلى التحديث المغلّـف بالتغريب المُصدَّر لهذه الدول، وكذلك التفسير الغربي للإسلام قد أوجدت مشكلات خطيرة، وإحدى هذه المشكلات أنها وَلَّدت مواقف معادية للغرب في العالم الإسلامي، وليس مما يقع في نطاق هذه الدراسة الحديث عن هذا الموضوع، والمهم ملاحظتـه هنا أنه ليس من الممكن فهم الشعـور المعادي للغرب في العالم الإسلامي دون فهم عداء الغرب التقليدي للإسلام.

وما على الإنسان سوى أن يتناول أية دراسة تتعلق بالإسلام، أو بجانب منه كتبها عـالم غربي ليرى كم مـن مراجعها ذي طابع معادٍ للإسلام؟ فلو قبل هؤلاء العلماء هذه المصادر دون نقد على أنها أصيلة عندئذ يكونُ الاستنتاج المعروف سلفًا أن مثل هذه الدراسة ستكون متحيزة بالتعبير اللطيف، بل سيكون فهمه للمصادر الأساسية للإســلام مشوبًا بقبول التفسير المعادي للإسلام الذي كتبه التقليديون أيضًا، ومن الإنصــاف الاعتراف بأنه قد يوجد علماء يدركون وجـود معلومات خاطئة أو كاذبة منتشـرة لدى الكُتّاب التقليديين، وربما انتقدوا هــذه الكتابات في دراساتهم، ولكن هــؤلاء قلة، ولم يؤثـروا التأثير المحسوس علـى مجمل الدراســات الاستشراقية، أو خبراء الشرق الأوسط في الإسلام.

إن خـبراء الشـرق الأوسـط في الإســلام، ووسائـل الإعـلام تناسـب المصالح السياسية، والتخطيطيـة، والعسكرية، والاقتصـاديـة لحكوماتهم العلمانية، ويجب أن لا ننســى أن مثل هؤلاء الخبراء بغض النظـر عن ولاءاتهم القومية وارتباطاتهم إنمـا هـم نتاج الحضـارة الغربيـة، وقد تشبعـوا بالتقليـد المعادي للإســلام، وقد اندمجـت هذه المواقـف ذات المركزية العرقيـة في ذواتهم مما يجعـل من الصعب

عليهـم أن يصبحوا موضوعيين بما فيه الكفايـة؛ ليستأصلوا المعلومات الخاطئة، أو المكذوبة، وعندما يُقَوِّض هذا التقليد المعادي للإسلام فرصة فهم الإسلام، ويؤلِّف الأساس لأي دراسات إسلامية يقـوم بها الأكاديميون الغربيون، فإن ذلك يهزم أيَّ ادعـاء بالموضوعية، وفي الحقيقة ثمـة خطأ أساس وتناقض مـا زال ينتظر البحث والاستقصـاء في مجال الدراسات الإسلامية في الغـرب، والسؤال هو: إلى أي مدى تعـد الدراسات الإسلامية التي تحمل صفة الموضوعية حقًّا كذلك؟! لو كان المطلوب بذل جهد صادق بين الغرب والإسلام، فعلى الغرب أن يعيد تقويمه لفهمه للإسلام، ويطـرح سـؤالًا خطيرًا علـى نفسه: هل من الممكـن أن يكون له علاقـات سابقة مع المسلمـين أو يتوقـع التعـاون منهـم بينما يلجـأ هو (الغـرب) في أي فرصـة لإهانة المسلمين وتشويه دينهم؟[1].



(١) الدليل على ذلك: إصرار الغرب على حماية سلمان رشدي بحجة حرية الفكر. (المترجم).